المرتضى

لكتب السودانية

الهيئة العامة لقصور الثقافة

الدراسات الشعبية

٩٣

ملائكة النيل

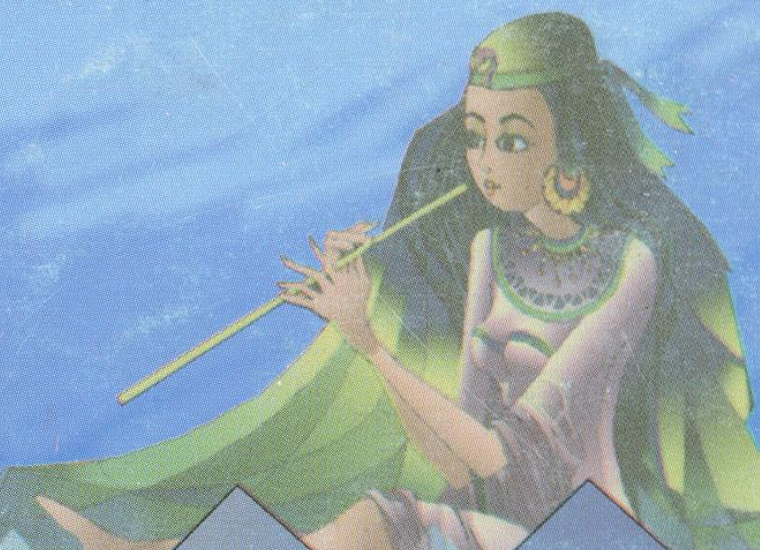
بعض العادات والمعتقدات عند النوبيين



إعداد وترجمة

فؤاد محمد عكود

هذه الأبحاث نشرت متفرقـــة فى مجلة علمية ســودانية فى الفترة ما بين (١٩١٨: ١٩٤٥) وقام الأستاذ فؤاد محمد عكود بجمعها وترتيبها وترجمتها ليتشكل منها هذا الكتاب (ملائكة النيل)، الذى نعتقد أنه من أهم وأمتع ما يمكن أن نقرأه عن عادات سكان وادى النيل؛ لنعرف الكثير من الأسرار التى نجهلها إلى اليوم عن عـادات تأصلـت فـى شعوبـنا مثل تشـريط وجوه السودانيين أو ما يسمى بالشلوخ .



ملائكة النيل

بعض العادات والمعتقدات عند النوبيين
سكان السودان الشمالى
(دراسة قام بها لفيف من الباحثين)

إعداد وترجمة

فؤاد محمد عكود

الهيئة العامة
لقصور الثقافة

المحتوى

المحتوى
المحتوى

هذا الكتاب

نهر يطرح الملائكة

ترى ما الذى يعرفه المصريون المحدثون عن المعتقدات والعادات والتقاليد الطقسية المنتشرة بين سكان وادى النيل عموما، ولا نزال نمارس بعضها أو معظمها إلى اليوم مع أن الكثيرين منا لا يعرفون أصولها القديمة ولا المقصود من ورائها على وجه التحديد. ؟

العادات والطقوس الخاصة بالموت والميلاد والختان للإناث وللذكور على السواء، أساليب الزواج من تعارف إلى خطوبة إلى عقد قران إلى ليلة الحنة فليلة الدخلة فالصباحية، دق الوشم على الفودين وفوق ظاهر اليد والساعدين، وما

يسمى بالشلوفة أو دق الوشم على الشفة السفلى عند النوبيين والسودانيين. كل هذه العادات والطقوس والتقاليد وغيرها يقوم ثلاثة من الباحثين بدراستها وكتابة تقارير علمية عنها فى هذا الكتاب الذى نشرف بتقديمه اليوم فى هذه السلسلة.

الباحثون هم: (ج وكروفوت)، كان إداريا بريطانيا يعمل في السودان، وانفتح على حياة شعبه فدرس من عاداته وتقاليده قدر ما استطاع.

الباحث الثاني: سيدة اسمها (صوفي زنكوفسكي) كانت تعمل مبشرة بين نساء السودان في منتصف القرن العشرين ولمدة طويلة، فاستطاعت أن تقف على محصول كبير من العادات والتقاليد والطقوس الحيوية فى حياة النساء السودانيات والنوبيات. أما الباحث الثالث - كما يقدمهم لنا المترجم - : فإنه الأستاذ (عبد الله الطيب) الذي كان مديرًا لجامعة الخرطوم وعضوا بمجمع اللغة العربية المصرى.

وكانت هذه الأبحاث قد نشرت متفرقة فى مجلة علمية سودانية في الفترة ما بين (١٩١٨ : ١٩٤٥) وقام الأستاذ فؤاد محمد عكود بجمعها وترتيبها وترجمتها ليتشكل منها هذا الكتاب (ملائكة النيل)، الذى نعتقد أنه من أهم وأمتع ما يمكن أن نقرأه عن عادات سكان وادى النيل؛ لنعرف الكثير من الأسرار التى نجهلها إلى اليوم عن عادات تأصلت فى شعوبنا مثل تشريط وجوه السودانيين أو ما يسمى بالشلوخ.

أما المترجم الأستاذ فؤاد محمد عكود، فلست أعرف عنه شيئًا على الإطلاق، فلقد تلقيت مخطوطة هذا الكتاب من أحد أصدقائي وأصدقائه، فلما قرأته وفرحت به عهدت إلى صديقي الكاتب النوبي يحيى مختار بقراءته وكتابة تقرير عنه، فإذا يفعل ذلك في زمن قياسي؛ نظرا لما أثاره الكتاب فيه من إعجاب وتقدير.

حقًا إن قراءة كتاب (ملائكة النيل) ستضيف إلى ثقافة القارئ قدراً كبيراً جداً من الوعي بجذوره التاريخية العريقة عراقة هذا النهر الخالد : نهر النيل طارح الملائكة.

نتمشم أن نكون قد وفقنا في الاختيار. شكرا لكم.. و.. سلام عليكم.

خيري شلبي

إهــداء

إذا خُيِّر الناس بين أعرافهم وأعراف الآخرين. فبعد الفحص والتمحيص. سيختار كل فريق أعرافه هو، لأن كل امرئ يعتد بأعرافه ويعتبرها الأفضل.

هيرودوت ١١١ : ٣٨

مقدمة

يضم هذا الكتاب مقالات للباحثين : ج. وكروفوت، وهو إدارى بريطانى كان يعمل في السودان، وكدأب أغلب الإداريين البريطانيين الذين كتبوا عن شتى مناحى الحياة في السودان كان اهتمامه ينصب على بعض العادات والتقاليد السودانية، أما الباحثة الثانية فهى : صوفى زنكوفسكى وهى مبشرة عملت وسط النساء السودانيات فترة طويلة فى منتصف القرن العشرين، أما الباحث الثالث : فهو عبد الله الطيب الذى كان أستاذاً اللغة العربية بجامعة الخرطوم ثم مديراً لها، كما كان عضوا بمجمع اللغة العربية بمصر. وله عدة كتب منها : المرشد لفهم أشعار العرب، ومن نافذة القطار. وقد نشرت هذه المقالات فى مجلة السودان فى رسائل ومدونات فى الفترة ما بين ١٩١٨ : ١٩٤٥. وهى موضوعات تتعلق بالعادات والمعتقدات الخاصة بالميلاد والختان والزواج عند سكان السودان الشمالي. وقد كانت هذه العادات والمعتقدات شائعة فى النصف الأول من القرن العشرين، ولكن الكثير منها بدأ فى الانحسار منذ النصف الثانى من القرن الماضى، مثل الشلوخ

ودق الشلوفة. أما الطقوس الأخرى كالجيرتق وقطع الرحط والذهاب إلى النهر بعد أربعين الولادة فما زالت باقية، ربما مع بعض التعديلات ويمكنني باطمئنان أن هذه العادات كلها عادات نوبية أو ذات أصول نوبية. فالشلوخ قديمة في سودان وادى النيل الأوسط. يقول يوسف فضل[1]: إن عادات الشلوخ منتشرة بين النوبيين الذين ظلوا يسكنون على شاطئ النيل منذ فجر التاريخ، فالشلوخ كانت معروفة في بلاد النوبة منذ العهد المروى على أقل تقدير أى أن الشلوخ عادة نوبية قديمة تبنتها المجموعات العربية التى اختلطت بالنوبيين. وهى منتشرة بالتأكيد قبل أن تختلط بهم القبائل العربية عند هجرتها إلى السودان، التى بلغت ذروتها فى القرنين الثالث عشر والرابع عشر. وعادة الشلوخ منتشرة بين المجموعات العربية والنوبية المستعربة التى تقطن شاطئ النيل، أما دق الشلوفة - أى وشم الشفة السفلى - فيبدو أنه عادة قديمة أيضًا؛ إذ إنها غير معروفة سوى وسط المجموعات النوبية أو المستعربة مثل الشايقية والجعليين، ولا يفرق السودان من أنواع الوشم سوى وشم الشفة السفلى واللثة التى تجرى للفتاة عند زواجها. وقد انقرض الآن تقريبًا وشم الشفة واللثة. ولكن قلة من النساء كما يقول يوسف فضل أخذن فى وضع وشم جديد على وجوههن، ويعرف هذا الوشم بالنقرابى. وهو عبارة عن حرف "T" يوشم على عظمة الخد الأيسر. ويعتقد أنه يضفى

جمالا على وجه المرأة، كما لم يعد المشاط موجودا إلا فيما ندر – وهو ضفر الشعر فى جدائل رفيعة. ويبدو أن المشاط كان عادة مصرية / نوبية قديمة، إذ نشاهد فى التصاوير والمنحوتات المصرية القديمة وقد مشطت النساء شعورهن بالطريقة ذاتها التى كانت تستخدمها المرأة فى السودان، مما يعنى أن هذه العادة من العادات القديمة التى تخلت عنها المرأة المصرية الحديثة، ولكنها استمرت متمسكة بها المرأة فى السودان ولم تتخل عنها كليا حتى الآن؛ وهناك قطع الرحط، وهو أيضًا من العادات والتقاليد القديمة فى سودان وادى النيل الأوسط ؛ ورغم أن الرحط كانت تلبسه العديد من الشعوب؛ فقد استمر كطقس انتقال للفتاة من مرحلة العزوبة إلى مرحلة الزواج؛ وذلك بخلع الرحط وارتداء ملابس النساء المتزوجات؛ كما نلاحظ أن هناك عادات يحظر على الفتاة غير المتزوجة استخدامها وهى الحنة واستخدام الدخان، فالفتاة حتى الآن غير مسموح لها بالتزين بوضع الحنة على يديها وقدميها أو التدخن ما دامت غير متزوجة، كذلك لا تتدخن المرأة المتزوجة إذا كان زوجها لا يقيم معها بسبب السفر مثلا.

كما أن الختان والذهاب إلى النهر عادات تمارسها المجموعات النهرية منذ القدم، ومازالت موجودة حتى الآن؛ ومازالوا على عادة ممارسة الطهارة أو الختان الفرعونى، رغم التحذيرات الطبية والقانونية التى تطالب السكان بالإقلاع عن هذه العادة

والالتزام بختان السنة، ويلاحظ أن الأب هو الذى كان يقوم باختيار العروس وتجهيز أو إعداد المهر وكل لوازم العرس؛ إذ إن هذه المجتمعات كانت مجتمعات زراعية تتركز الثروة فى يد الأسرة فى البيت الكبير، فالاقتصاد الزراعى كان يعتمد على الساقية التى يملكها الأب أو الجد، ويعمل كل أفراد الأسرة فى الأرض الخاصة بساقيتهم رجالا ونساء، وكانت الساقية تسقى كل المحاصيل اللازمة من الحبوب كالقمح والذرة والشعير والسمسم والدخن... إلخ إلى جانب الخضراوات بجميع أنواعها حتى البصل والثوم... إلخ كما كانت الأسرة تربى الطيور والماشية والماعز والضأن والحمير. كما كانت الأسرة التى يكون أحد أبنائها على وشك الزواج تجهز الشيران التى ستذبح أيام العرس، وتعد كل ما يلزم العرس بأيامه الأربعين.

لقد كان محصول الساقية يكفى مستلزمات الأسرة لعام كامل ويفيض. أما الاحتياجات الأخرى التى تحتاجها الأسرة ولا تغلها الأرض، فلم تكن تتعدى أشياء قليلة جداً مثل: السكر والشاى والملح حتى الكبريت لم تكن الأسرة تستخدمه كثيرا، فالنار دائما مشتعلة فى الدونكا «الدويشا بالحسية والفاديجا» (المطبخ) وإن لم تكن موجودة فهم يأتون من الجيران بقبس. كما كان اللبن والزبد والسمن من منتجات مواشى الأسرة. حتى القطن كانت الأسرة تزرعه ويتم حلجه فى المنزل يدويا بآلة يدوية بسيطة، تديرها امرأتان وتقوم الأم أو الجدة بغزل

القطن ومن ثم يذهب إلى النساج الذى يقوم بنسجه بنول يدوى.

وهكذا فكل شيء متوفر، لذا لم يكن الابن يحمل هم الزواج فالأسرة هى التى تتكفل بكل شيء حتى بعد أن يتزوج الابن وينجب أطفالا. فالأم أو الحبوبة (الجدة) هى المسئولة عن توفير كل تموين المنزل وتوزيع العمل على بناتها غير المتزوجات وزوجات أبنائها. فالكل يعيش فى المنزل ذاته أو فى منازل مجاورة فى أرض للأسرة . كما يتم جمع المحصول، وكل ما تغله الأرض والنخيل يخزن فى البيت الكبير، وتقوم الأم أو الجدة بسحب كل احتياجات الأسرة منه.

لذا فعندما يتزوج الابن يمكث أربعين يوما خلى البال فبقية الأسرة تتكفل بكل شيء. كذلك عندما تلد الزوجة فإنها تمكث أربعين يوما لا تفعل شيئًا، ولا تخرج من الغرفة التى تقيم فيها إلا لقضاء الحاجة، وتقوم أمها وأخواتها أو أم الزوج وبناتها بخدمتها والعناية بها خلال الأربعين يوماً. وحتى عندما يشب الأطفال فإن الجد فى الغالب هو المسئول عن توفير احتياجاتهم وليس الأب. لقد كان هذا هو السبب فى أن الأبناء يتم تزويجهم فى سن مبكرة بفتيات صغيرات كن مازلن يلبسن الرحط. ويشكل النيل أهمية كبيرة جدا بالنسبة للنوبيين ولكل السكان النهريين فهو مصدر رزقهم وحياتهم، هو مرتبط عندهم بالمناسبات السعيدة، عند الولادة وعند الزواج والكثير

من معتقداتهم، وهو جالب الخير والنماء الوفير.

ونلاحظ أن هناك طقوس كثيرة مشتركة بين كل المجموعات السكانية النهرية «فالجيرتق» «وقطع الرحط» و«السيرة» و«الضريرة» و«الذهاب إلى النهر عند الزواج وفى أربعين الولادة وختان الذكور والإناث والشلوخ ودق الشلوفة والمشاط» حتى الاعتقاد فى الأولياء و«الفقرا» (الشيوخ).

وكقاعدة عامة لا يتم تقسيم ما يرثه أفراد الأسرة من أرض أو نخيل إلا فيما ندر. وتتم الزراعة مشاركة، ويقسم المحصول بعد جنيه.

والطفل فى هذه المجتمعات يتحمل المسئولية منذ سن مبكرة جدا. فالطفل الذى بلغ عمره أربع سنوات يقوم بتوفير العلف والحشائش لتغذية الماشية. وفى سن الخامسة يرعى ماشية الأسرة - الماعز والضأن - وحتى وإن كان قطيعًا مكونا من العشرات، ومن سن السابعة حتى العاشرة يقود حمار السماد لتوزيعه فى الأحواض المزروعة كما يسوق الساقية. أما من سن العاشرة فهو يعد مزارعا يتولى كل المهام التى يقوم بها الرجال سواء فى الحقل من زراعة ورى وحصاد وجمع المحاصيل أو المشاركة فى شئون الحياة الأخرى.

لقد عزوت كل هذه العادات والممارسات إلى المجموعات النوبية إذ إن المجموعات السكانية التى يضم هذا الكتاب عاداتهم ومعتقداتهم، هم سكان المنطقة الواقعة ما بين الخرطوم

وأرض المحس في شمال السودان. وهم: المحس، والدناقلة النوبيون الذين مازالوا يحافظون على لغاتهم النوبية، إلى جانب المجموعات الأخرى كالجعليين والرباطاب والشايقية، وهي تلك المجموعات التي يعتبرها العديد من علماء الأجناس نوبيين تعربوا باختلاط العرب بهم، ومن ثم نسوا لغاتهم النوبية. فالسير هارولد ماكميكل[٢] قسم عرب السودان إلى قسمين رئيسين: المجموعة الجعلية الدنقلاوية التي تضم معظم المستقرين حول النيل وفي كردفان. والمجموعة النيلية التي تضم الجوابرة والبديرية والرباطاب والشايقية... إلخ ولهذه المجموعة نسبة ضئيلة جدا من الدم العربي ولا يمكن تمييزهم إنسانيا وثقافيا عن الدناقلة الرطانة الذين من الأفضل أن نضيف إليهم هذه القبائل[٣].

كما يقول ترمنجهام: إن مجموعة الجعليين الدناقلة تبنت العربية وشجرة أنساب عربية، وهم لا يمكن تمييزهم عن بقية الدناقلة. كما يقول الشيء ذاته وليم آدمز[٤].

ويبدو أن السودانيين لم يظهروا أية مقاومة تجاه عملية التعريب الثقافي، ولكنهم غيروا تركيبته إلى حد بعيد، ولم يحافظوا فقط على العنصر السلالي السوداني الأصيل فحسب وإنما على قوميتهم في عاداتهم وتقاليدهم. يقول جعفر ميرغني[٥]: وإن المرء يعجب إذا كان هؤلاء العرب أو أكثرهم الذين قدموا من داخل البلاد العربية الإسلامية آنذاك كيف صاغ

لهم أن تخلع نساؤهم وبناتهم الفتيات الزى المتعارف عليه فى التقاليد الإسلامية منذ العهد المدنى، وأن يتقبلوا الأعراف السودانية التقليدية التى كانت تقضى بأن لا تلبس الفتاة شيئًا سوى الرحط حتى البلوغ ما لم تتزوج، فإذا تزوجت توشحت بالدرع ولبست الثوب (القرباب) ولكنها لم تكن ترى بأسًا إذا لم يشمل الدرع أو الثوب صدرها»، هذا الرأى يدعم الرأى القائل بأن هناك مبالغة فى عدد العرب الذين جاءوا إلى السودان واستقروا وسط المجموعات السكانية النوبية.

الهوامش

١ - د. يوسف فضل حسن، الشلوخ، أصلها ووظيفتها في سودان وادى النيل الأوسط، دار جامعة الخرطوم للنشر، الطبعة الثانية، ١٩٧٩.

٢ - هارولد ماكميكل History of the Arabs in sudan. 1992.

٣ - سبنسر ترمنجهام، الإسلام في السودان، ترجمة فؤاد محمد عكود. المجلس الأعلى للثقافة المشروع القومي للترجمة، القاهرة ٢٠٠١.

٤ - وليم آدمز (Nubia Corridor to Africa).

٥ - د. جعفر ميرغني، عرب السودان العاربة أم العرب المسودنة، صحيفة الخرطوم ٢٩ يوليو ٢٠٠٠.

كما استعنت في الهوامش والتعليقات التى في نهاية كل مقال في هذا الكتاب ببعض المراجع المهمة.

- الكتاب المقدس
- الشيخ عبد الله عبد الرحمن الأمين، العربية في السودان، دار الكتاب اللبناني، بيروت، الطبعة الثانية ١٩٦٧.
- د. عون الشريف قاسم، قاموس اللهجة العامية في السودان، شعبة أبحاث السودان، الخرطوم الطبعة الأولى ١٩٧٢.
- الأب الدكتور ج. فانتيني، تاريخ المسيحية في الممالك النوبية، الخرطوم، ١٩٧٨.
- هنرى عبود، معجم الحضارات السامية، جروس برس، بيروت، لبنان، الطبعة الثانية ١٩٩١.
- معجم الحضارة المصرية القديمة، الهيئة المصرية للكتاب، ١٩٩٢.

يقال إنه في زمن الخليفة عبد الله التعايشي، كان هناك صياد يطرح شبكة في النهر واصطاد فتاة عمرها حوالي عشر سنوات. وعندما سألها ابنه من هي؟ أجابت: إنني ابنة ناس النهر. وأخذها الصياد إلى الخليفة الذى سألها السؤال ذاته وكيف أمسكت بها الشبكة، قالت: أيها الخليفة إنني بنت ناس النهر، وقد خرجت من منزلي لأحتطب بعض خشب الحريق عندما أخرجتنى الشبكة إلى البر. وعندما سمع الخليفة بأنها تنتمي إلى ناس النهر خاف أن يأخذها. وبعد التشاور مع مستشاريه وضعوها في قارب الصياد، وألقوا بها مرة أخرى في النهر في المكان الذى يلتقي فيه النيل الأبيض بالأزرق.

وتروى قصص مثل هذه على طول ضفاف النيل، عما يسمى ببنات الحور اللاتي يقول عنهن الذين يعرفونهن بأنهن صغار وبيض، يذبلن عندما يتم إخراجهن من الماء. والبعض منهن غير مؤذيات. وهناك على سبيل المثال لقيط في جزيرة «أرقو» يعتبر أنه جاء من النهر. ولكن القسم الأكبر منهن يحمل أسماء شريرة، على أساس أنهن ساحرات من طراز «السرسى» وقد فعل الخليفة الصواب بإعادة الفتاة التى اصطادها الصياد.

وهناك عرافون بعينهم ليست لهم زوجات دنيويات، معروفون

بأنهم متزوجون من بنات الحور.

ومع ذلك فإن بنات الحور هؤلاء لسن الشعب الوحيد الذى يعيش فى النهر. هناك أيضا الصالحون، أو كما يسمون عادة ملائكة البحر أو «ماريا» كما عند الدناقلة. وهم يؤثرون على عدد كبير من الشعائر الوطنية. وهم مع ذلك مشوقون، لأنهم ليسوا تقليديين تماما. إن الاسم الفعلى لملائكة البحر فى حقيقة الأمر محرم؛ لأن «الكتاب» ذكر فقط أن الملائكة تعيش فى السماء، والملائكة فى الجنة. ومع ذلك فإن الرجال والنساء والأطفال يقدمون القرابين لناس النهر هؤلاء، ويصلون لهم من أجل الصحة والقوة، بالرغم من مواعظ العلماء بأن الله فقط هو الذى يمنح الصحة والقوة، ويبدو أن أفضل رأى بالنسبة لهذا الشعب الطيب على عكس بنات الحور أنهم محجوبون بالنسبة للميتين العاديين.

نحن لا نراهم ولا نسمع موسيقى أجنحتهم، ونعلم الآن أنهم يقيمون مؤقتا فى الجوار، ولهم العديد من الصفات البشرية فى الكثير من المظاهر. فهم مولعون بالكحل على سبيل المثال، ويمكنك إعطاؤهم الكثير منه باستمرار.

إن هؤلاء الملائكة الذين يمكن تخيلهم بدون أجنحة ليست لهم أسماء فردية مثل الملائكة العظام المذكورين فى «الكتب المقدسة» مثل ميكائيل وجبريل وروفائيل، وهلم جرى. أو مثل الأرواح التى تستحضر فى حفلات الزار الحديثة. إنهم يشبهون

أكثر الملائكة التى لا أسماء لها «ملائكة الرب» التى تظهر كثيرا في العهد القديم، أولئك الذين كان القديس بولس يفكر فيهم عندما كتب أن المرأة يجب أن يكون لها - بسبب الملائكة - قوة في رأسها، كما يجب أن نذكر أنه مثل «العلماء» حذر قراءه من عبادة الملائكة، وفي دنقلا يقال إنه لا يمكن أن يولد طفل ما لم يساعد ملاك من النهر في ولادته. كما أن الرضيع عندما يبتسم فإن ابتسامته علامة على أن الطفل قد لمح نظرة خاطفة من الملاك. وتروى القصة ذاتها عن الملائكة الحارسة التى لها ذات القرينة ذاتها والخصوصية الرئيسة للأرواح التي يخشى منها، أو التي عبدت في مكمنها في موطنها النهرى. وحتى في هذا فهم ليسوا استثنائيين، فللأنهار في أماكن أخرى أرواحها، كما أن للأرض أرواحًا أيضًا، وقد اعتبروا في السودان أنهم يشكلون خطرا بالنسبة للمرأة الحامل عند عبورها أى نهر أو ماء جار أو مجرى عميق في الطريق، إذ ربما تكمن فيها أرواح شريرة، إن أرواح النهر أكثر شهرة في الأسطورة والشعيرة هنا؛ لأن النهر يلعب ببساطة دوراً كبيراً في حياة الناس.

وربما قد تبدو لبعض العادات التى اعتزم وصفها بأنها للملائكة، وبشكل خاص ملائكة النهر علاقة بسيطة أو ربما لا علاقة لها بالقضية، ولكن تم ذكرها لفهم معتقدات الشعب بشأن هذا المغزى. فمن الضرورى رؤيتها في سياقها المناسب، ورؤيتها على هذا الضوء. فمن المأمول أن العديد من الأشياء

التي تبدو لاعقلانية ربما تجد درجة من التبرير .

وتضم المنطقة التي جمعت منها المادة كل المناطق النيلية الشمالية ، وبصفة خاصة مناطق حلفا ودنقلا والخرطوم والنيلين الأبيض والأزرق ، وربما لا توجد مواد مشابهة في المناطق الأكثر جنوبا على كلا فرعي النيل ، ولكن لم يحدث أن حصلت بنفسي على شيء من هذه المناطق ، وهناك في المنطقة التي يتم ذكرها تنوعات كبيرة في التفاصيل ، ولكن على الرغم من بعض الإفادات التي تقول بعكس ذلك ، فإنني لا أعتقد أن هذه التنوعات تتبع التقسيمات القبلية التي دخلت إلى المنطقة بعد تمزق الممالك المسيحية في القرنين الرابع عشر والخامس عشر .

لقد تم وصف احتفالات الزواج والختان في مقالة عادات الرباطاب ، ففي كل من هاتين المناسبتين يلبس الفتى أو الرجل مثل المرأة : فهو يرتدى عقدا وأسورة ، وفي بعض المناطق حلية مستديرة تشبه الهلال فوق الجبهة . والحلي والعطور التي تصب على رأسه تعرف مجتمعة «بالجيرتق» وهي كلمة يقال إنها دنقلاوية اشتق منها الفعل «يجرتق» لوصف عملية الاحتفال بهذه الشعائر . وتختلف بشكل كبير تفاصيل الحلي والاحتفالات عند مختلف العائلات والمجموعات في المنطقة . ففي بعض الأسر على سبيل المثال أت أهم شيء هو الخرزة الخضراء المنظومة في قطعة من الحرير الأحمر مع جديلة طويلة تتدلى منها لتشكل وحدة واحدة مع الأسورة ، وتعتبر هذه

الخرزة الخضراء على أنها شىء ذو قيمة ثمينة تورثها الأم لبناتها . أى طبقا لقانون النسب الأمومى ، وأهم خرزة لدى الأسر الأخرى هى خرزة السوميت . فقد تم تأجيل زواج شايقى فى اللحظة الأخيرة ؛ لأن الخرزة الزرقاء كان قد جىء بها بدلا من السوميت الخاصة بالأسرة . وينظم خرز القلادة فى شعر الحصان ، ويجب أن تغمس فى اللبن قبل استخدامها . وتلبس لمدة أربعين يومًا عند الزواج ، وفى حالة الختان حتى البرء تمامًا .

ويبدو أن بعض هذه التفاصيل المميزة بهذه المنطقة - كما نوهنا - تختلف من مكان لآخر ، ولكن العادة الغريبة لارتداء العريس مثل النساء ليست شائعة (وقد ذكر فليمنج فى السودان فى رسائل ومدونات المجلد الثانى ص ٧٥ ممارسة مشابهة وسط قبائل لبنى عامر فى شرق السودان) كما ذكر ماكميكل مثالا آخر فى جبل ميدوب فى غرب السودان . وإذا ما كانت هذه دليلا على العبادة السابقة لآلهة الطبيعة العظمى فى هذه المنطقة كما تم عبادتها فى دول البحر المتوسط ، فإن هذه العادة ربما تفسر الشعائر الباقية التى يرتدى المؤدون الرئيسون مثل الآلهة التى عبدوها . ولكن الدليل الوحيد لمثل هذا الاعتقاد الذى يبدو لى هو ذلك الذى وفرته المنحوتات الصغيرة فى جبل «قيلى» جنوبى الخرطوم ، ولكنها ضئيلة جدا لبناء نظرية عليها .

ومن الضرورى إضافة أن هذه العادات تم النظر إليها بارتياب

فى العديد من الأماكن التقليدية لمجاذيب الدامر، بينما جيرانهم الغربيون مثل الشكرية - يسخرون منهم على أساس أنها نسائية وسخيفة، وبرغم أن الشعب الذى يمارسها أكثر تدينا، ولكنهم لا يستطيعون تفسير لماذا عليهم ارتداء الحلى النسائية فى هذه المناسبات، وأعتقد أن هذا ليس بسبب أن الناس ينفرون من التحدث عنها صراحة، إذ إن هذه هى العادة على أية حال، ولكن لأن العادات تخص دائرة من الأفكار التى كبرت مع الزمن وتم نسيانها، فكم عدد اللواتى تزوجن فى الغرب يتذكرن لماذا ترتدى العروس الطرحة أثناء إجراءات الزواج؟ أما المناسبة الثالثة التى يتم فيها ارتداء هذه الحلى فيسمى «الرباط» أو جيرتق «الحاملة» ويتم إجراؤها عادة فى الشهر السابع لحمل المرأة. وقد تكون فى وقت متقدم أو متأخر، ونجدها فى رفاعة على النيل الأزرق، إن الرباط احتفال مشابه لاحتفال الزواج. إذ يؤمر الزوج طبقا لثرائه بإحضار مشبك من الذهب أو الفضة للشعر يسمى «إبرة» معلق بها سلسلة صغيرة من الذهب أو الفضة بالإضافة إلى كمية وفيرة من مختلف أنواع العطور. كما يجهز خروفا أو اثنين لزوجته وصديقاتها من النساء. وبعد أن يأكلن الخروف يقمن بتثبيت المشبك على الجانب الأيمن من رأس المرأة، ويضعن على رأسها الدهون وخشب الصندل المطحون، ويقمن بمسح أنفسهن وبناتهن بالدهون فى الوقت ذاته كما يذهب الزوج أو أم المرأة إلى الفكى، أى «الفقيه»

للحصول منه على خيط به تسع عقد - الرباط - تمثل الحمل التسع. وبعد أن يقرأ الفكي على الخيط تقوم بربطه حول بطن الحامل، حيث يبقى حتى ولادة الطفل. ويجب أن يتم لبس الإبرة والحلي الأخرى حتى الولادة، ولكن لا توجد الإبرة في العديد من الأسر (قال لي أحد الرجال إن الأمر مجرد خدعة للحصول على هدية غالية من الزوج. بالتأكيد ليس كذلك) ومن جهة أخرى فإن الأسر الدنقلاوية والجعلية أكثر نبلا، إذ تهدى المرأة ذاتها إبرا بها خيط من الحرير الأحمر إلى صديقاتها الحميمات اللاتي يضعنها في رءوسهن، ويرجعن بعد الولادة لتقديم هدية للمولود (ذكر لي ناظر مدرسة الفاشر عاصمة دارفور أن هناك عادة مشابهة يبدو أنه قد جاء بها إلى هناك دنقلاوي سكن منذ مدة طويلة) يقمن في ذات الوقت بتثبيت الإبرة وبها الخيوط على الحائط أمام عنقريب الأم. ولا يتم نزع الخيط الحريري الأحمر من الإبر لمدة أربعين يوماً إلى أن يتم إلقاؤها في النهر مع القرابين الأخرى إلى ملائكة النيل. هذه هي الملامح الرئيسية لجيرتق المرأة كما وصفها مختلف الأشخاص. ولكن شخص واحد فقط أعطاني سبباً لهذا الجيرتق. إذ قال إنه يتم إجراء هذه العادة في - أو بالقرب من - الشهر السابع؛ إذ في حوالي هذا الوقت أو في وقت مبكر يصبح الجنين أقل استقرارا ويتحرك أكثر، وبالتالي فإنه ربما يفلت من رقابة عين الملائكة الحارسة الطيبين، ومن ثم يعرض

نفسه لاعتداءات الجن الشرير . وكلهم يتفقون على الاعتقاد بأنه ما لم يتم إجراء هذا الطقس فإن الأم قد يسقط حملها أو لا تستطيع رعاية الطفل ، أو ربما يولد الطفل وبه بعض التشوهات ، تماما كالطفل الذى تم ختانه والذى ربما يعانى من المخاوف أو عدم النوم أو الأحلام المزعجة أو النزيف المستمر ما لم يتم بشكل دقيق لبس كل حلى جيرتق . ومن الملاحظ أن معظم المخاطر التى يتعرض لها الناس فى هذه المناسبات هى المخاطر الغامضة والتى لا يمكن فهمها ، ومن ثم تنسب إلى عمل الأرواح . إن فاعلية الحلى المكونة من الخرزة والخيوط المعقودة والإبر والمعادن من كل الأنواع ، هى لطرد الأعداد من الأشباح التى كانت من أوائل المكتشفات البشرية ولا تحتاج إلى تعليق .

والعادة الثانية التى أرغب فى وصفها هى عادة خاصة – حسب علمي – بمنطقة السكوت . وهذه العادة تسمى «ماريا» وتفسيرها يعنى الملائكة . ويتم الاحتفال بها خلال يوم أو يومين من ولادة الطفل . أى قبل أن تقوم الأم بإرضاع الطفل . إنه احتفال تأخذ فيه القابلة بالطبع الجزء الأساسى ، وهى التى تتصدر الزيارة إلى «ماريا» وهى قمة الدراما الصغيرة . يتم قبل ولادة الطفل وضع طبق كبير من الخوص يسمى «تركر» فى الحجرة التى ستتم فيها الولادة ويملأ الطبق بالتمر والذرة وتضع القابلة الموسى التى تستخدمها فى التوليد على الطبق . ثم عندما يولد الطفل وقبل قطع الحبل السرى تأخذ القابلة

عددا من التمرات من الطبق تضعها وتلمس بها الحبل السرى في اللحظة التى تقوم فيها بقطع الحبل السرى. وتعطى التمر إلى أى شخص حاضر يشعر بالجوع، ويتم قطع الحبل السرى. ثم تأخذ القابلة مرود الكحل وتغمسه في بصلة وتمس بها عين الطفل.

وتضع الطفل على العنقريب، ثم تقوم النساء بعد ذلك بالعناية بالأم وذلك بتبخيرها وتمديدها وتضميدها وإعطائها مشروبات منعشة. وتتناول الأخريات أية مرطبات تكون متوفرة في المنزل. ويحدث طقس «ماريا» بشكل مميز في وقت ما فيما بعد. فطبقا لكل الروايات أنه يجب قبل أن ترضع الأم طفلها تحضير كل الاستعدادات من كنس البيت ووضع الكناسة والمشيمة وموسى القابلة معًا. ثم صنع طوق صغير من سيقان القمح توضع فوقه لمبة صغيرة، كما يتم صنع كعكة كبيرة من دقيق القمح. وتأخذ القابلة المولود وتنزل به إلى النهر ومعها عدد من النساء والأطفال يحملون معهم إلى جانب الأشياء المذكورة أيضًا طشتًا من النحاس يحتوى على المكحلة والمرود اللذين استخدما من قبل، والقليل من حبوب الذرة والتمر. وتنثر القابلة وهى في طريقها إلى النهر الحبوب يمينًا ويسارًا وهى تقول: «أيتها الملائكة هذه هى حصة وقسمة ماريا» وتدق النساء المصاحبات على المكحلة والطشت ويدعون «بماريا وبالملائكة وبهذا الوجه الجديد حقق لنا يارب أمانينا» وعند

النهر يتم غسل وجه الطفل ويديه وقدميه ويضعن الطوق وعليه اللمبة المشتعلة والكعكة فى الماء، ولكن يتم خطف الكعكة قبل أن يدفعن الطوق إلي مجرى النيل. وطبقا لإحدى الروايات يتم وضع المشيمة أيضا فى الطوق. ولكن يعتقد بشكل عام أن المشيمة يتم إلقاؤها فى النيل مع الكناسة. ثم تقوم القابلة بملء الطشت بماء النهر، ثم تقطع أربعا من جرائد النخل لتضعها فى أركان البيت الأربعة. وتقوم بغسل ثدى الأم بماء النهر وتعطيها الطفل لتقوم بالرضاعة، وفى ذات الوقت يتم تكحيل عيون الطفل، كما يتم رسم صليب بالكحل على جبهته، ويرسم صليب آخر على الحائط أمام عنقريب الأم الذى كان قد تم طلاؤه «بالعقى» (مادة داكنة تخرج من بطن المولود بعد ولادته) الذى يعتبر ظاهرا على نحو مميز؛ لأنه يخرج من الطفل قبل أن يتلقى أية تغذية «دنيوية» وطبقا لجنس المولود يتم إحضار ولد أو بنت معروف بحسن الخلق، تعطى له أولها سبع تمرات يقوم بمضغها وبصقها على المولود متمنيا أن يشب / تشب مثله / مثلها ومثل والديه / والديها. ثم تقوم قريبات الأم بتهنئتها وتقديم الهدايا. وتذهب القابلة لمنزلها وهى تحمل «التركر» وتنثر فى طريقها ما بقى فيه.

وطبقا لرواية أخرى يتم رسم صلبان خارج المنزل الذى ولد فيه الطفل. وكذلك على الأوانى التى تخزن فيها الحبوب والتمر. وترسم هذه الصلبان بدماء أية حيوانات يتم ذبحها

لمختلف الاحتفالات المتعلقة بالولادة وتسمية الطفل وهلم جرا.

وينقد هذه الممارسات التى من الواضح أنها من بقايا العصر المسيحى أولئك الذين تلقوا تعليماً دينياً فى الجامع الأزهر. كما يتم أيضاً فى دنقلا رسم الصليب بالمادة الداكنة التى تخرج من بطن المولود بعد ولادته، ثم بعد ذلك بدماء الأضاحى التى تذبح فى «العقيقة» التى تقدم فى اليوم السابع أو التاسع ليوم الولادة يستخدم فى رسم الصلبان على أبواب المنازل وعلى جبهة المولود والأم وأى نساء حاضرات يرغبن فى رسم أنفسن. ويجب ألا تكسر عظام الضحية ولكنها تحفظ إلى أن يتم إلقاؤها فى البرك التى تتجمع أثناء الأمطار). وفى دنقلا أيضا هناك شعيرة سحرية مختلفة، إذ يقوم الوالدان - طبقا لنوع المولود باختيار رجل ذى مكانة أو امرأة حسنة الأخلاق بمضغ ثلاث تمرات ووضعها فى فم المولود على أمل أن يشب المولود مثله أو مثلها، وقد أضاف أحد الأشخاص أنه إذا - كما يحدث فى بعض الأحيان - لم يوجد بين الحاضرين من يحمل تلك الصفات التى يرغب الوالدان فى أن يحوزها مولودهما، يتم تأجيل هذا الجزء من الشعيرة حتى يوم الاحتفال بتسمية المولود فى اليوم السابع للولادة.

ويبدو أن شعيرة «ماريا» التى تم وصفها أيضاً محصورة فى منطقة السكوت - ولكن هناك عادة شبيهة بها تماما تسمى أربعين الولادة منتشرة بشكل واسع. وهى موجودة فى

السكوت ودنقلا، ويربر. كما لوحظ بشكل متكرر على ضفاف النهر في الخرطوم وأم درمان: يبد الاحتفال عند غروب الشمس في اليوم الأربعين للولادة وهو اليوم الأول الذى تغادر فيه الأم منزلها. وتركب الأم أو تسير على قدميها إلى النهر وهى تحمل وليدها ويصاحبها صديقاتها والأطفال من كلا الجنسين. وفى إحدى المرات كان يسبق الأم طفلان عاريان يحملان سلة يقال إنها تحتوى على كناسة المنزل والمشيمة (يتم التخلص من المشيمة فى العادة ما يمكن، إما بإلقائها فى النهر بدون احتفال أو الطفل الثاني، وكان يعتقد أن لها روحا تصبح في الحال شبحا) ولا تلعب القابلة أى دور فى هذه الشعيرة، وتحمل النساء جريد النخل إذا تمكن الحصول عليه، وإلا فأى نباتات خضراء، يمكنها أن تؤدى الغرض. ويغنين وهن فى طريقهن إلى النهر أغانى تجدها فى الملحق المرفق مع هذا المقال.

وعندما يصلن إلى شاطئ النهر يلقين بالجريد في النهر وكذلك التمر والذرة والشب والكحل وأية تقدمات أخرى أحضروها معهم. كما يتم إلقاء محتويات السلة فى النهر ثم تعطى الأم الطفل إلى إحدى صديقاتها، وتقوم بغسل وجهها ويديها وقدميها ثم يتم غسل الطفل بالطريقة ذاتها ويرفع عاليا فى الهواء وسط زغاريد النساء اللواتى يغتسلن بدورهن بالطريقة ذاتها ثم يشربن من النيل، كما يشرب الأطفال الذين لا يشاركون فى الممارسات السابقة. وقبل أن يعدن إلى المنزل

يقطعن المزيد من جريد النخل أو النباتات الخضراء ويحملنها إلى المنزل. وفي بعض الأحيان يمكثن على شاطئ النهر ويتناولن طعام العشاء هناك، ويلقين في النهر أيضا مما يأكلن إلى ملائكة النهر. ويبدو أن الإجراءات متشابهة في جوهرها في دنقلا والسكوت. وبالرغم من أن البعض يضعون تأكيدا على الابتهالات لملائكة النهر. وبالإضافة إلى كناسة البيت فإن الخرق والأغطية التي استخدمت في الولادة يتم إلقاؤها في النهر - وبين الجعليين في المتمة - وربما في أماكن أخرى - يتم تقديم سبع حصوات بيضاء إلى ملائكة النهر. (كتب لي ناظر مدرسة الفاشر، يقول إنه في الفاشر هناك شكل مختلف مشوق: ففي اليوم الأربعين تلبس الأم كل حليها، وترتدي أفخر ثيابها، وتترك الحجرة التي كانت محبوسة فيها، وتسير عبر المدينة، بينما تحمل صديقاتها بعض الدقيق والزبد وكناسة حجرتها التي كان يتم الاحتفاظ بها بحرص تحت سريرها، ويذهبن جميعا إلى شجرة خضراء شرقي البيت الذي كانت تعيش فيه الأم - لقد اعتبرت هذه الشجرة كبديل للنهر - ويتم - في الحال - مسحها بالزبد ورشها بالدقيق وتترك الكناسة بجوارها)[١].

وهذه الأشياء التي تقدم لملائكة النيل تشبه الحلي التي تلبس في مراسم الجيرتق، وهي تشير إلى الاعتقاد بمخاطر الأرواح ذاتها سواء الروحية أو البشرية، كما تفعل العادات الأخرى

التى سوف نقوم بوصفها. ففى بعض الأسر أو المناطق فإن الحبل السرى للرضيع وشعر الولادة وقلامات الأظافر التى يتم قصها فى الأربعين تسلم كلها إلى الجدة من جهة الأم التى تحتفظ أيضا بالخرزة الخضراء التى كانت قد لبست فى الجيرتق. وتقوم الجدة بحفظها فى صناديق صغيرة. كما أن الجدة هى الأمين المفضل لحفظ الحُق المزخرف بالعديد من الألوان(٢) وفى بعض الأسر هناك تعديلات مختلفة على هذه العادة : فعلى سبيل المثال، قال رجل من الدامر نصف جعلى نصف عبادى إنه وسط قومه فإن الحبل السرى للفتاة يحفظ بعناية فى المنزل إذ من غير المرغوب فيه أن تتسكع الفتاة هنا وهناك، بينما الحبل السرى للولد يلقى فى النيل على أساس أنه يجب ألا يخاف من السفر إلى الخارج، وذات الفكرة متأصلة فى كل هذه العادات : أى إن ما كان فى وقت ما جزءا من جسم الإنسان أو على اتصال وثيق معه (الأغطية وكناسة البيت فى حالات الولادة على سبيل المثال) ربما تؤثر عليه بشكل خاص. وقد يستخدمها الأعداء من الإنس أو الأرواح وتؤذيه بعد فترة طويلة من انفصالها عنه. وقد تم تبنى نظامين لتفادى هذه المخاطر : يتم بعناية حفظ الأشياء فى مكان أمين أو مكان لا يمكن الوصول إليه فى الغالب، مثل صندوق فى داخل البيت. وطبقا للنظام الآخر أن يعهد بها إلى حماية أرواح قوية وخيرة مثل ملائكة النيل، ومثل ارتداء الحلى فإن هذه الممارسات الأخرى تشبه الأسباب والبراهين ذاتها التى

توجد فى كل أنحاء العالم (فى جزيرة أبا على النيل الأبيض سمعت عن استخدام آخر يتم فيه وضع الأشياء التى جمعتها جدة جعلية - إذ بين العرب فإن الحبل السرى وشعر الولادة وقلامات الأظافر تربط كلها معا فى يوم الأربعين - حول رقبة أى حيوان : فرس أو بقرة أو ناقة قرر الوالد وهبها للوليد، ومن ثم يصبح الحيوان وكل نتاجه من ممتلكات الوليد).

ولهذه المعتقدات علاقة مباشرة جداً بما قد يسمى بنزول الملائكة. إن فترة الأربعين يومًا بين الولادة والتطهر فرضها التشريع الدينى على الأقل منذ سفر اللاويين[٣] كما أن استخدام الصليب مرة أخرى - الذى ذكر كثيرا كتعويذة حافظة - من الواضح أنها أثر مقدس لتبجيله كعلامة للقوة خلال قرون المسيحية عندما تم تقديم فترة الأربعين يوما، وبرغم أنه ربما يكون أقدم أو أحدث لأن «أسنوك هوزجروج يقول (مكة مجلد ٢) إن الأمهات المكيات يقدمن أطفالهن بإجلال فى الجامع الكبير فى يوم الأربعين : لذا فربما من ثم يمكن التفكير بأن الاعتقاد فى الملائكة أو أرواح النهر تقرر فى الفترة المسيحية، وأن الاغتسال الاحتفالى هو إحياء للقربان المقدس للتعميد[٤] ويبدو لى أن صورة الإيمان المسيحى والشعيرة واهية جدا لجعل وجهة النظر هذه محتملة خاصة عندما اتحد الإيمان الكامن فى المعتقدات البدائية. وقد أقترح أن الاعتقاد فى ملائكة النيل والتطهر وفقا لطقوس معينة.

والممارسات السحرية المرافقة كلها سواء للتعبير بالطريقة ذاتها كإحياء «للوثنية» أو الأرواحية فى أوروبا المسيحية والمسلمين الشرقيين. إن الاغتسال الشعائرى فى النهر يتوازى مع التطهر وفقا للطقوس المعينة الموجودة فى أماكن أخرى. كما أن التبجيل والتوسل إلى ملائكة النهر يتوازى مع عبادات الآبار والينابيع والأنهار فى كل أنحاء العالم الوثنى : كلاهما ينتمى فى الحقيقة لتطور الفكر الذى يرقد تحت أو خلف الديانات التاريخية.

وبرغم أن هناك تعديلات طفيفة قد تم تحريفها لتتلاءم مع الأناجيل والتوسل إلى الله فى «ماريا السكوت» على سبيل المثال. وذكرت الإشارات إلى الأولياء فى الأغانى التى فى نهاية هذا المقال جلبت الإقحامات التى قبلت بسهولة؛ بسبب أن الديانات الجديدة ذاتها لها نشأتها وسط الممارسات الشعبية.

وسواء جاءت الأسطورة أو الشعيرة أولا - وبكلمة أخرى - ما إذا كان الناس يطهرون أنفسهم فى النهر لأنهم يعتقدون فى أرواح النهر، أو ما إذا كان إيمانهم قد نبع من تطهرهم الشعائرى فهى مسألة لا يمكننى أن أناقشها، ولكن هناك نقطة أخرى مشوقة تنبع من مادة هذه الورقة : لقد أشرت أكثر من مرة إلى المعارضة التى تثار حول بعض هذه العادات فى الطبقات العليا من المجتمع. إن الموقف المحلى تجاه هذه الممارسات تنوع بذات الطريقة تجاه موقف الطبقات فى البلدان الأخرى. ففى كل مكان فإن المرأة هى الحافظة الوفية القوية على الطرق

القديمة. وقد وجدت في كل مكان من يؤيدها من الجنس الآخر. إن أسر الشيوخ وفكي «فقيه» القرية تظل في طريقة الحياة القديمة، والفقهاء لا مبالون دائما. لقد جاءت المعارضة من أولئك الذين تنقلوا في العالم جيئة وذهابا وشهدوا المدن والناس وبشكل خاص أولئك الذين حصلوا على التعليم من مراكز البعثات الأجنبية.

معتقدات أخرى:

عند الدخول إلى منزل به طفل حديث الولادة يجب على الزائرة أن تقول «مبروك» أو «الحمد الله على سلامتك» وفي مصر إذا ولد طفل فيجب على الزائرة ألا تطلب رؤية الطفل؛ خوفا من أنها قد تسحره ولكن الأمر مختلف في السودان (في مصر تربط خرزة زرقاء في شعر الطفل أو حول رقبته لإبعاد العين الشريرة. واللون الأزرق هو اللون الوحيد الفعال ضد العين الشريرة) وأول شيء يذكر هو اسم الله أو النبي لإبعاد الأثر الضار عن الطفل.

وإذا عاش طفل في أسرة مات كل أطفالها في السابق فإن الأم في بعض الأحيان تبيعه إلى واحدة من صديقاتها مقابل مبلغ نقدي رمزي، وتسمى الشارية أم الطفل أو مربيته وتكسيه منذ ولادته حتى يصبح رجلا ويتزوج. وعندها تعطيه هدية قيمة وتنقطع العلاقة بينهما. ويحدث الشيء ذاته بالنسبة للفتاة.

كما أن أم الطفل الباقى على قيد الحياة ربما تذهب إلى جارتها بعد الأربعين وتستجدى للطفل قطعًا من القماش وسكرا وخبزا وأشياء أخرى. وتفصل للطفل كساء من قطع القماش، وتعتبر الملابس المرقعة تعويذة جيدة ضد العين الشريرة ولخداع وتضليل الروح لتعتقد بأن الطفل فقير وعديم الشأن ولا ينتمى لأمه. وإذا ما مرض الطفل مرضا شديدا وعوفى فإن الآباء يغيرون في بعض الأحيان اسمه لتضليل الأرواح(٥).

التوائم :

يفترض أن للتوائم روحًا واحدة مشتركة بينهما. ويعتقد أناس أنه إذا مرض أحدهما فإن الآخر سيسقط مريضًا. وإذا مات توءم فعلى الوالدين وشم الطفل فى وجهه لكى لا يأخذه معه التوءم الميت. ويتخيل السودانيون أن روح التوائم تخرج من الجسم فى الليل إلى جسم قط أو كلب أو طائر، لذا فالناس فى الغالب يخافون من ضرب هذه الحيوانات فى الليل خوفا من قتل الطفل.

أغنيات تغنيها النساء فى أربعين الولادة :

١ - فى منطقة الخرطوم :

جين ليك يا بحرنا ... شلع النور بى قبلنا
رحب بينا واملنا ... يكبر يتبارك ولدنا

نـــاديت الصـــلاح تـــم وأهـــل الله جــات معظمــا
حضروها ســـالمة اللمــا حـــلوها والـــرب ســـلما
ناديت الصـــلاح تمـــام أهل الله جات كاربة الحزام
نــاديت لى خـــاله الحــبر والبـــدوى هناك فى مصـــر
حضروها عند ساعة الحبل حلوهـــا والأم تنجـــــبر
ناديت أولاد أهل الأســـاس وخاله النــادر فى القيــاس
جرتقوك مكلوفــة المــدير ناقشـــوا له الرية أم حرير
يا ام ستر خشمك مو هبيل بجنـــاك يرعاك الجليـــــل
جريقوها المهرة أم حـــزام التكيل العــين بالتمــــام
فوقك الصـــلاح الكـــرام يا الرســـول فوق أم الغلام

٢ - فى منطقة الشايقية :

(أ) للطفل :

يـــايمــــه ولـــدك عجبنى وعجبك
يجى تمســـاح ولدك يشق الواق ولدك
يشيل السيف ولدك ينط الحيط ولدك

(ب) للبنت :

يا بركة الجيتى لأمك الما بيك اليقنت
تغزلى الربطة للتيبان تحلى أبوك من الديوان

٣ - أبيات تغنى فى الفاشر أثناء الولادة :

يا حـــــلال الحـــــاملة | من غلاما جالة
جبريل ناجى ربـــه وجـــا | يا حلال المابدو رجزا
يا حـــــلال يحلهـــــا | حلا بلى قسا
يا حـــــلال الزول من الزول | يا حلال ويا ابو عاشه النور
يا ست فاطمة نادى لى أبوك | ابكفن مبروك حلال المدروك
يـــــا مـــيـــرغنـــى | أنا مدروكة تحلنى

هوامش وتعليقات

١- في مقالة لي بصحيفة الاتحادي الدولية (الأحد ٥ أكتوبر ١٩٩٧) حول ظاهرة الذهاب إلى النهر بعد أربعين الولادة قلت إنني حضرت في ليبيا ولادتين لأسرتين سودانيتين، أصرت كل والدة على الذهاب إلى البحر - وكان البحر هنا هو البحر المتوسط - وهناك أجريت الطقوس الخاصة بغسل وجه ويدى وقدمي الطفل كما تقضي بذلك العادة. وتساءلت - ولم يكن قد وقع تحت يدى هذا البحث الخاص لملائكة النيل - ماذا يكون حال الأم التي تلد طفلها في مكان لا يوجد به نهر ولا بحر؟ ولكنني الآن وجدت أن جداتنا من النساء النوبيات قد واجهتهن المشكلة ذاتها ومن ثم تفتقت أذهانهن عن هذا الحل الفذ وهو الاستعاضة عن النهر بشجرة خضراء.

٢-الحُق: إناء من الخشب أسطواني الشكل ذو غطاء مخروطي، بألوان حمراء وسوداء. يوضع فيه العطور مثل كسار خشب الصندل والمحلب وغيره (انظر شكل ١) ويشبهون النهد أحيانا بالحُق. قال عمرو بن كلثوم:

وثديا مثل حق العاج رخصا   حصانا من أكف اللامسينا

٣- الكتاب المقدس، سفر اللاويين.

٤- ربما كانت هذه العادة من مخلفات العهد المسيحي، إذ تقضي الكنيسة القبطية والأثيوبية بوجوب تعميد الأطفال الذكور في اليوم الأربعين بعد الولادة. وقد حافظت الأم على هذه الشعيرة لمئات السنين، فبرغم تخليها عن المسيحية ودخولها في الإسلام فإنها لم تترك عادة طقس تعميد طفلها الوليد.

ولكن من أين جاء تقليد تعميد الطفل في نهر النيل؟

إننا إذا ماعدنا إلى الوراء قليلاً وبحثنا في التاريخ، فسنجد إنه عندما كان عدد النوبيين الذين دخلوا في المسيحية قليلاً كان التعميد يتم سرا داخل كنيسة في حوض المعمودية. ولكن عندما انتشرت المسيحية بين السكان، ولم يعد هناك من داع ليتم التعميد سراً داخل الكنيسة، ومن ثم اختفى حوض المعمودية من الكنائس مؤخراً، وأصبح تعميد الأطفال يتم علنا في النيل.

يقول الأب الدكتور فانتني في كتابه: «تاريخ المسيحية في الممالك النوبية القديمة والسودان الحديث، الخرطوم، ١٩٧٨ص ١٣٥»: «إنه في أقدم الكنائس النوبية كان حوض المعمودية عبارة عن بركة مربعة الشكل ومزدانة جدرانها بألوان، وفيها ثلاثة سلالم للنزول وثلاثة سلالم للخروج منها. ونستنتج من هذا أنه في بداية عصر المسيحية بالنوبة كان طالب المعمودية ينزل إلى الماء في البركة حيث يتم تعميده، ثم يخرج منها صاعدا من الجانب الآخر... أما الكنائس التي يعود زمن بنائها إلى عصر أحدث فلم يكشف فيها جرن ولا بركة، وربما كان سبب ذلك أنه وبعد انتشار المسيحية في النوبة، كانت المعمودية تتم في نهر النيل».

٥ - كما يستخدمون الشلوخ أيضًا بالنسبة للطفل الذى يولد بعد عدد من الأطفال الذين ماتوا. ويقوم الوالدان بتغيير شلوخ القبيلة التقليدية بوضع شلوخ قبيلة أخرى. فقد يضعون شلوخ الشايقية الأفقية بدلا من شلوخ الدناقلة العمودية. ويعتقدون أنهم بذلك يغيرون من ملامح الطفل لتضليل ملك الموت؛ لأنه لا يجد الشلوخ التقليدية لأبيه. كما أنه إذا ولد طفل بعد موت أبيه فإنهم قد يشلخونه شلخا غير الشلخ المألوف عند أهله (أو شلوخ والده) حتى لا تتعرف عليه روح أبيه ويختطفه الموت (انظر د. يوسف فضل، الشلوخ) (انظر شكل ٢).

عادات ومعتقدات من أم درمان

تطورت مدينة أم درمان التي تقع على طول ضفة النهر من المعسكرات التي كانت قد نصبت هناك لحصار الخرطوم، وهي مكونة من مختلف المجموعات السودانية، وكان هناك اتجاه بالنسبة لهذه المجموعات لاكتساب نظام موحد للتقاليد والشعائر الخاصة بالميلاد والختان والزواج والوفاة. وهذا المقال يصف احتفالات الزواج التي شاهدتها في أم درمان الكاتبة التي عاشت وسط الناس وحضرت العديد من تلك الاحتفالات، وأتيحت لها الفرصة الكاملة لمناقشتها بالتفصيل مع صديقاتها من النساء السودانيات.

أما المجموعات التي عاشت الكاتبة وسطهم، فقد كانت في الأساس من الجعليين والمحس. وكانت هذه المجموعات في مواطنها التي تقع على طول النيل تختلف بعضها عن البعض في احتفالاتها، ولكن في أم درمان تبلورت هذه المجموعات في شكل عام يختلف فقط في التفاصيل الصغيرة، وهذا مرجعه الضغط الاجتماعي، إذ على القادمين الجدد القبول بالقواعد العامة وإلا فسيتم إقصاؤهم من الاشتراك في الشكل المعقد جدا لعادات الحياة العامة.

تتزوج الفتيات السودانيات مبكرا. فسن الثانية عشرة

تعتبر مناسبة جداً. والبعض منهن يتم تزويجهن قبل البلوغ. أما الزواج المبكر جدا فقد منعته الحكومة، والأب عادة هو الذى يقرر المسألة أو - إذا كان متوفيا - فالعم بصفته ولى الأمر، وفى بعض الأحيان إذا لم يكن للفتاة أب أو قريب فإن الفتاة تترك فى رعاية الوكيل الذى قد يقرر مصيرها حسب إرادته. ونادرا ما تعترض الفتاة على الاختيار إذ من المحتمل أنها تعرف زوج المستقبل منذ طفولتها، ولكن قد يحدث فى بعض الأحيان، أن الاتحاد المقترح تنقضه الروح المرافقة للفتاة (الجن الأحمر) الذى ربما يعترض على الشخص الذى تم اختياره. ويستخدم فى الغالب الزواج بين الأسر الكبيرة والمهمة بين أبناء وبنات العم من مختلف درجات القرابة كوسيلة للحفاظ على أية ثروة (مال أو حلى ذهبية) داخل مجموعة تلك العلاقات المحددة. ويحدد الأب مقدما مهر العروس مع من يرسلهم العريس، وعلى العريس في الغالب العمل لمدة طويلة لجمع المبلغ المطلوب. وربما يخفض العرف السائد فيما يتعلق بقيمة المهر فى حالة أبناء وبنات العم أو الزوج المرغوب فيه، وقد حدث هذا مؤخرا فى حالة فتاة من معارفى تم زفافها في مقابل خمسة جنيهات مصرية، وقيل فى سبب دفع هذا المبلغ الصغير أن العريس كان ابن عمها المباشر، وتتراوح المهور ما بين خمسة وخمسين جنيها فأكثر، وبالإضافة إلى المهر المتفق عليه يجب على العريس أن يدفع مبالغ إضافية :

(أ) لدق الشلوفة .

(ب) للروائح : مجموعة من أنواع الطيب تسحن وتضاف إلى الحنة .

(ج) ملابس وعطور لمراسم «قطع الرحط» .

(د) حلوى وتمور . كما أن عليه أن يعطى أيضا هدية من النقود إلى العروس فى ليلة الحنة ، وهدايا إلى المرأة والنساء اللواتى يساعدن خلال كل أيام الاحتفال .

وبوجه عام فإن مراسم الزوج مكلفة جدا حتى مع إسهام كل الضيوف الذين يأتون ومعهم إسهاماتهم من نقود أو بن أو سكر ، ويتم جمع مقدار كبير خلال ليلة الحنة ، ولكن المصروفات ثقيلة جدا ، ويجب ذبح خروف يوميًّا لإطعام كل الضيوف ، خاصة قريبات وصديقات الفتاة اللاتى يعملن كأوركسترا ، يغنين ويضربن «الدلوكة»[1] ويصفقن ، ويتم شراء أثاث بيت المستقبل من النقود التى يدفعها العريس ، ويتكون الأثاث من : عنقريب (سرير خشبى منسوج بالحبال فى السودان وبالجريد فى النوبة المصرية) أو سرير مزدوج ، ومراتب ووسائد ، و«طشت» من النحاس ، وطبق كبير للأكل ، وحُق لحفظ الطيب ، وأكواب للقهوة والشاى ، وتقوم الفتاة وشقيقاتها وقريباتها بتطريز الملاءات والمفارش[2] .

وبمجرد أن يدفع العريس المال تقوم قريباته بتقديم التمور والحلوى إلى العروس ، ويأتين فى سيرة وهن يزغردن ويغنين

ويحملن سلالاً كبيرة على رءوسهن، وتعتبر الفتاة بعد هذا الاحتفال «محبوسة» وغير مسموح لها بالخروج من الحوش. وتقوم والدتها أو والدها - إذا كانت أمها متوفاة - بالطواف على كل الأقارب والأصدقاء لدعوتهم لحضور العرس، ولتقوم النساء بالمساعدة في المطبخ، والفتيات ليغنين ويساعدن في الرقص والسيرة (ويتم تحديد اليوم السعيد لكتاب عقد القران، ويقدم الطعام والمشروبات إلى المأذون والأقرباء والأصدقاء).

ثم يأتي بعد ذلك «دق الشلوفة» ويجب إجراء هذه العملية بوقت كاف قبل قطع الرحط - المناسبة التي تكشف فيها العروس عن وجهها للرقص أمام كل الحاضرين من الضيوف الرجال والنساء، ويجب أن تقوم بهذه العملية - دق الشلوفة - امرأة خاصة يفضل أن تكون خفيفة اليد إذ إن العملية مؤلمة. إذ تجلس المرأة على عنقريب ممددة الساقين وترقد العروس ورأسها على ركبتي المرأة وهي مغطاة بثوب وتجلس القريبات بجوارها للإمساك بيديها. ويجب ألا يسمع أي صوت من العروس، إذ إن الفتيات اللاتي يراقبنها سوف يجعلنها أضحوكة فيما بعد إذا ما أنت أو أبدت أي تزمر، يشعل البخور وتقدم الحلوى إلى من تجري العملية، ويتم تذويب قليل من السناج في كوب به ماء أو صحن ويوضع طبق به رمل بالقرب من رأس العروس لتبصق فيه. ويتم شد الشفة السفلى إلى أسفل وتمسح بخرقة مغموسة في السائل الأسود، وتمسك المرأة الشفة السفلى بقوة بيدها

اليسرى وتثقب بمجموعة من الإبر المربوطة معا فى حزمة، وبوخزات سريعة حادة تقوم بثقب الشفة باستمرار لمدة حوالى نصف ساعة، مع فترات راحة قليلة للسماح للمريضة (الخاضعة للعملية الجراحية) لتبصق اللعاب المتجمع ولوضع مزيد من المادة السوداء على الشفة. وأثناء ذلك تغنى وتصفق وتزغرد الفتيات، ويجب على عروس المستقبل أن تحافظ بعناية على شفتها التى انتفخت مغطاة خشية أن يراها أى شخص. وإذا ما حدث ذلك فيجب أن تؤخذ فى الحال إلى النهر وإلا فإنها سوف تعانى من تأثيرات العين الشريرة (الكبسة)، وأن شفتها لن تبرأ أبداً.

أما أذنا العروس فقد كانت قد ثقبت منذ أن كانت فى سن العاشرة ليس فقط شحمة الأذن، بل فى مكانين أو ثلاثة على طول حرف الأذن، كذلك يتم ثقب فتحة الأنف اليمنى من أجل دبلة الزواج التى يوضع بها حجر من العقيق باستواء مع طوق مع الذهب المجلو بشكل صقيل، ويتم وضع قطعة من العشب أو مادة مزخرفة على شكل نجوم فى الثقوب لمنعها من الانسداد.

وبعد حوالى عشرة أيام من وشم الشفة السفلى - عندما يسترد وجه العروس حجمه الطبيعى - تبدأ عملية المشاط، إذ يتم استدعاء امرأة خاصة تحضر ومعها شوكة من أشواك القنفد أو عود حاد لتقسيم وضفر الشعر فى خصلات رفيعة تغطى الرأس كغطاء محكم. ويتم تطويل نهايات الشعر بشعر صناعى

أو بخيوط من الحرير الأسود، ويتدلى الشعر حتى وسط العروس ويكون واضحا عند الرقص، وتستغرق عملية المشاط ثلاثة أيام أو أربعة، إذ من المستحيل إنجاز أكثر من ربع الرأس في اليوم، وتشد الماشطة باستمرار جذور الشعر والجلد مما يؤدى إلى الصداع، وتغنى الفتيات ويصفقن ويضربن الدلوكة ويزغردن ويمتعن أنفسهن خلال عملية المشاط (انظر شكل ٣).

ويذهب العريس في اليوم السابق لليلة الحنة مصحوبا بأصدقائه وأقاربه من النساء والرجال في موكب «سيرة» إلى منزل العروس وتحضر له العروس ملفوفة في ثوب، ويقوم بوضع يديه على رأسها ويتلو أو يقرأ سورة (يس)، وإذا لم يكن يستطيع القراءة أو التلاوة يقوم شخص آخر بالقراءة أو التلاوة بدلا منه. بينما يده علي رأسها، وبعد ذلك يدفع مبلغاً من المال إلى النساء اللواتى يجهزن الحنة. وتقدم الحلوى والمشروبات لكل الحاضرين. وتسمى هذه المراسم «بلمس القُصّة» ويقوم البعض بإجراء هذه المراسم في يوم كتابة عقد القران.

ويتم في العادة إجراء مراسم الحنة في الليل، لذا تسمى ليلة الحنة، ويجتمع كل الضيوف والفتيات لهذه المناسبة، ويتم إطعامهم قبل كل شيء، وللعروس حمام خاص تحضره الفتيات والقريبات كبار السن، ومن ثم يقمن بإلباسها الملابس وتعطيرها، وبعد ذلك تنتظر العروس أخبار قدوم موكب

العريس، ويتم تجهيز عنقريب في وسط الحوش أو في حجرة كبيرة إن وجدت، ويغطى هذا العنقريب «ببرش» خاص بخطوط حمراء أرجوانية داكنة يستخدم فقط للمراسم وتحته مرتبة. ويتم إحضار العروس وهي مغطاة تماما في فركة (قرمصيص)(٣) وتجلس فوق العنقريب وهي مغطاة الوجه لا ترى. كما يجب ألا تتكلم أو تتحرك.

ويصل العريس مع أقاربه وأصدقائه من الذكور والإناث، ويقابله عند مدخل المنزل أقربائها والفتيات الحاضرات، وتنطلق الزغاريد من كلا الجانبين، ويلوح العريس بسوط ضخم مصنوع من جلد فرس النهر. وتبدأ الفتيات في رقصة الاستقبال وقد زين شعورهن بجدائل طويلة خصيصاً لهذه الرقصة ويعطين «الشبال»(٤) للأقرباء من الرجال، ويرقصن حاسرات الرأس واليدين إلى الخلف والصدور مرتفعة إلى الأمام، ويتقدمن بخطوات متبخترة وبحركة بطيئة جدا. والرءوس ترتفع وتنخفض إلى أن يقتربن من العريس، وعندها يستدرن بشكل خفيف ويتمايلن برءوسهن من اليمين إلى اليسار للحصول على تأرجح لجدايلهن الطويلة التي يجب أن تلمس أطرفها رأس العريس وهو يهز سوطه بيد ويفرقع بأصابعه يده الأخرى فوق رأس الراقصة، وبعد انتهاء هذا العرض يتم إدخال القادمين الجدد إلى البيت وتقدم لهم الأطعمة.

وكلا البيتين يكون مشغولا في إعداد الحنة وكل أنواع

الطيب لهذه الليلة والليالي التالية، ويتم طحن كل المكونات المطلوبة في «فندك» (هاون) خشبي ضخم بمدق خشبي في سمك يد الإنسان وفي طول الشخص الذي يدق به، ويحتاج الدق إلى مهارة وخبرة كبيرتين، وتقوم به النساء العجائز اللواتي يتم تأجيرهن عادة لهذه المناسبة. وتعمل كل اثنتين على فندك يرفعن المدق بالدور بينما يحافظن على الإيقاع، وتقوم اثنتان أو ثلاثة من النساء بالضرب على قرع مقسوم إلى نصفين يطفو فوق ماء في أحواض كبيرة، والنقر حاد جدا وعالي النغمة وتزغرد النساء. وترقص الفتيات على شرف العاملات وأي ضيوف يصادف حضورهم.

وتأتي أفضل أنواع أوراق الحنة من الدامر، وعندما تجفف وتسحق وتخلط بالماء يتم الحصول على عجينة سميكة عندما توضع على الجلد تصبغه بلون بني داكن، ويجب أن تبقى الحنة على الجلد لمدة ساعتين أو ثلاث إلى أن يتم الحصول على اللون المطلوب، أما الحنة الموجودة في أم درمان فإنها تصبغ الجلد باللون الأحمر البرتقالي. ويتم في العادة صبغ راحة اليدين وأظافر وباطن القدمين. والتفسير الشائع لاستخدام الحنة هو أنها من المفترض لترطيب الجلد وجعله ناعما خاصة في الأقدام، وقبل «المهدية» لم تكن الفتيات معتادات على استخدام الحنة. ولا تستخدمه سوى المتزوجات والعروس الجديدة قبل زواجها(٥) (انظر شكل ٤).

وبعد تناول المرطبات التي قدمت للعريس ولمرافقيه يعين المكان الذى تجلس فيه عروسه وهي مغطاة بثوب، ويؤتى بطبق الحنة ويأخذ العريس قطعة منه ويحاول وضعها في يدها، وتقاوم العروس بعنف وعليه استخدام القوة للإمساك بيدها وفتحها وإغلاق أصابعها على قطعة الحنة، وبعد ذلك يمنح العروس مبلغًا من المال يأخذها الشخص متولي الهدايا ويعلنه بصوت عال على الحضور. وبعد هذا العرض يذهب العريس إلى الجانب الذى به الرجال، ويبدأ الآن دور الضيوف والأقارب والأصدقاء لتقديم هداياهم النقدية إلى العروس، ويتلقى هذه الهدايا من هو مسئول عنها ويعلنها بصوت مرتفع وقد يكتبها على قطعة من الورق، وفي ذات الوقت تقوم النساء وهن يغنين بصوت خفيض بوضع الحنة في يدى وقدمى العروس من صحن مضاء بالشموع وهو الإناء الذى أخذ منه العريس قطعة الحنة التي وضعها في يد عروسه، ويتم في بعض الأحيان معالجة الأقدام سرا في الليلة السابقة، وإذا كان المنزل كبيراً والناس متحررين، يتم دعوة الفتيات إلى الجانب الذى به الرجال ليرقصن للعريس، مما يعد فرصة للرجال غير المتزوجين من أصدقاء العريس لرؤية واختيار زوجة المستقبل؛ لأن الفتيات يرقصن حاسرات الرأس ويضعن حليهن الذهبية وجدائلهن الطويلة الجميلة. وفي وقت متأخر من الليل يذهب العريس إلى منزله لتقوم والدته بتحنينه.

وفى اليوم التالى (ليلة الحنة) يأخذ العريس متعلقاته ويذهب للإقامة فى منزل العروس، حتى ولو كان ينوى أخذ عروسه بعيدا عن أهلها إلى منزله الخاص الجاهز فيجب عليه الإقامة مع والديها لمدة أسبوع. أما الأكثر شيوعا فهو الإقامة لمدة أربعين يوما، وبعد ذلك له الحرية فى أن يفعل ما يشاء. ويتم إعداد الطعام أكثر ويحضر ضيوف أكثر، وفى هذه الحالة الضيوف الذكور إذ إنه حفل خاص بالرجال، ويأتى فى المساء العريس وهو يحمل سوطه وربما يمتشق سيفا وهو محاط بأقربائه من الذكور وهم يلوحون بالعصى ويشتركون فى الرقص. وتقف النساء فى الخلف وهن يغنين ويصفقن ويزغردن، ويصبح الاحتفال الذى تضيئه المصابيح مهيبا عندما يتوقف الموكب عند تقاطع الطرق الرئيسة لترقص الفتيات ويهز الرجال عصيهم، وعند منزل العروس يقابلهم أهلها من النساء وهن يزغردن ويرقصن، ويذهب الرجال إلى الجزء الخاص بهم لتناول الطعام أولا وبعد ذلك يشاركون فى الرقص، وتذهب النساء إلى المطبخ ويقمن بواجب إعداد الطعام وتقديمه.

وتبدأ فى صباحية ليلة الدخلة شعيرة «الحضانة» - اللقاء الصامت - إذ يجلس العريس والعروس معا على حصيرة (برش) أو مرتبة وقد تغطيا بثوب. ويتم إجراء هذه الشعيرة فى الصباح الباكر إلى أن تشرق الشمس، وفى المساء حتى ظهور

أول نجمة، وتستغرق هذه الشعيرة دقائق قليلة، ويتكرر كل يوم إلى أن يتم تسليم العروس رسميا إلى العريس فى اليوم السابع. وإذا لم يتم الحفاظ على الصمت التام من قبل الزوجين أثناء هذا اللقاء فإن العروس قد تتعرض «للكبسة» وتصاب بالعقم، وفى الصباح التالى يتم إرسال صينية كبيرة مملوءة بالأطعمة إلى والدة العريس، وفى اليوم الثالث يمنح العريس الفتيات خروفا، وتسمى هذه الهدية «حلالة العريس».

وتجرى مراسم «قطع الرحط» بعد اليوم الذى يصل فيه العريس، والرحط عبارة عن حزام يتدلى منه سيور جلدية يغطى الفتاة من وسطها حتى الركبتين. وكانت الفتيات الصغيرات يجولن مرتديات الرحط فقط والجزء العلوى من أجسادهن عار. وكانت الفتيات الأكبر سنا يرتدين قميصا أو رداء فوقه أو يرتدين الثوب[٦] أما الآن فقد تم تقريبا التخلى عن لبس الرحط. ولكن لا يتم زواج بدون مراسم قطع الرحط هذا. إن العذارى فقط هن اللواتى يلبسن الرحط، وعندما تتزوج الفتاة عليها لبس «القرباب» وهو قطعة من القماش عرضه متران وطوله أربعة أمتار، يتم لفه مرتين حول النصف الأسفل من الجسم حتى الكعبين، وكلما كان الزوج غنيا كان القرباب أغلى وأجمل وهو مصنوع فى بعض الأحيان من الحرير الطبيعى الغالى جدا.

ويتم اختيار حوش كبير - منزل الجار فى بعض الأحيان - إذا

لم يكن بيت العروس كبيرا. ويفرش الحوش بالعناقريب والمقاعد أو البروش وعليها الوسائد أو المراتب في دائرة، ويوضع في وسطها «برش خاص» ذو لون أحمر زاهٍ لتقف عليه العروس. وغالبا ما تتم المراسم بعد الظهر حالما يصل الضيوف وتكون العروس قد تزينت بكل حليها و«الأحجبة» اللازمة. وفي الوقت الذى تكون فيه العروس مشغولة بارتداء ملابسها يتم تقديم المرطبات وفي بعض الأحيان الطعام إلى الضيوف. وتكون غرفة العروس ممتلئة بالنساء والبنات إذ لا محل للسرية أو الخصوصية، فالكل يجب أن يساعد ويبدى الرأى. وترتدى العروس لباسا نسويا تحتاني يشبه «البنطلون» وتنورة تحتانية، ويربط الرحط فوق اللباس النسوى بالإضافة إلى أن العروس ترتدى فوق هذه الملابس أفضل الثياب التي قدمها لها العريس. ويستغرق التزين بالحلي وقتا طويلا، إذ إن هذا هو محور الاحتفال، وترتدى العروس «البندقي» المكون من ثلاثة صفوف أو أكثر، مع وضع خيط به حبوب من الذهب تسمى «شريفة» يتدلى من الخلف عبر الرأس من الأذن إلى الأذن ويتم تثبيته مع الشعر بالخيوط حتي لا يسقط أثناء الرقص. وتوضع في الأذنين الأقراط الكبيرة التي تسمى «الأخراس» والصغيرة التي تسمى «الفدو» بعدد الثقوب الموجودة في الأذنين. أما خاتم الزواج «الزمام» فيوضع في الأنف ويتم وصله بغطاء الرأس فوق الأذنين بواسطة سلسلة من الذهب في صفين يسمى «الرشمة»

وتلبس المطارق حول العنق، وهو عبارة عن عقد من الجنيهات الذهبية والعقيق (السوميت) يعرف بتيلة الجنيهات، ثم عقد من أنصاف الجنيهات الذهبية وخرز من العقيق يسمى تيلة الأنصاص، ثم خيط من حبوب الذهب يسمى «الفتيل» (تعرف كل واحدة من هذه الحبوب الذهبية بالفرج لله) ثم سبحة اليسر وهي مكونة من تسعة وتسعين خرزة سوداء كبيرة وثمانية خرزات حمراء على مسافات في السبحة. ثم عقد السوميت وهو عبارة عن خيط طويل جداً من خرز العقيق وحبوب الذهب. وأخيرا الحجاب وهو مهم جداً - وربما تكون العروس فقيرة لا تملك ذهبا لترتديه، ولكن لا تعفى أبداً من لبس هذا الحجاب. وترتدى العروس في رقبتها حجابين في أغلفة من الجلد الجديد، أحدهما أسطوانى والآخر مربع، كما يشبك صندوقان صغيران مربعان على كل فخذ ويتم ربط حجاب صغير فوق أعلى الزراع. وترتدى في كل قدم «حِجِل» (خلخال) كبير من الفضة (تتلقى الفتاة الصغيرة عندما تبدأ في تعلم المشي زوجًا من الحُجُول مناسب لقدميها، وكلما كبرت تستبدل بهذه الحجول حجولاً أكبر حجماً، وهكذا إلى أن تصبح مكتملة النمو) وليس من الضرورى أن تكون كل الحلى التى تلبسها العروس هى من ممتلكاتها الخاصة، إذ إنها تلبس ثروة الأسرة كلها، وحتى أفقرهن تستعير الأشياء لهذه المناسبة. وبعد تمام لبس كل الحلى وتثبيته يشعل البخور ويوضع

تحت ملابس العروس، ومن ثم يخطر العريس بأن العروس جاهزة. وأثناء قدوم العريس وضيوفه وجلوسهم تجرى العروس آخر بروفة لرقصة العروس. ومصحوبة بالزغاريد يتم لف العروس من رأسها حتى أخمص قدميها «بفركتها القرمصيص» متعددة الألوان، وتقودها النساء إلى وسط «البرش» وتمسك النساء فوقها بثوب على شكل خيمة أحد طرفيه وملابسها مرفوعة لكشف الرحط، ويقترب العريس ومعه موسى أو سكين حادة يقوم بقطع سبعة سيور من الرحط بضربة واحدة، ويلقي بالسيور التى قطعها على الفتيات متمنيا لهن زيجات سعيدة. ويتم بعد ذلك رفع الثوب وتشاهد العروس وهى تغطى وجهها بكفيها، وتبدأ الفتيات وهن يزغردن ويغنين أغانى الرقص ويصفقن لتنظيم الإيقاع. وتقوم المرأة المصاحبة للعروس لتسوية ملابسها وإصلاح وضع السبحة والقلائد والحلى فى أماكنها الصحيحة، وتنزل يدا العروس التى تكون مغمضة العينين تماما ويتقدم العريس ويمسك بأحجبة العروس ويقودها إلى الأمام وتتبعها المرأة لملاحظة عدم تخطى العروس حافة البرش، وعلى العروس أن تؤدى رقصتين كبيرتين ورقصتين صغيرتين، وتؤدى الرقصتين الكبيرتين بمصاحبة غناء وتصفيق الفتيات، بينما تؤدى الرقصتين الصغيرتين بمصاحبة الضرب على «الدلوكة». وعند نهاية كل رقصة تجلس الفتاة فجأة وعلى العريس الذى يراقب كل الوقت بحرص شديد هذه اللحظة أن

يمسك بها قبل أن تجلس . أما إذا جلست قبل أن يمسك بها يضحك عليه كل الحضور بسرور . وبعد أن تنتهي الرقصات الأربع تلف العروس مرة أخرى في ثوبها وتعاد إلى غرفتها . وفي اليوم التالي يجب أن ترقص بناءً على دعوة كل ضيف جديد وزوجها يقودها من أحجباتها .

وكان قطع الرحط في الأزمنة القديمة أكثر خصوصية وسرية ، فقد كان يتم عند الفجر في غرفة مغلقة لا يحضرها سوى العريس وأقرب نساء الأسرة ؛ إذ لم تكن العروس ترتدى شيئا سوى الرحط ،ومن ثم كانت ترقص عارية تماما .

وإذا كان هناك أي قيل وقال حول سلوك فتاة ، أو إذا الأم كانت تتركها لفترات طويلة وحدها في البيت ، أو إذا كانت الفتاة تخرج كثيراً لحضور الأعراس وتسير في المواكب (السيرات) كثيراً فسوف تصر الأم على دعوة قابلة لثقب غشاء البكارة صناعيًا . وتقوم القابلة في غرفة مغلقة بشرح العملية للعريس الذى يلف على إصبعيه منديلا وتقوم الأم بالاحتفاظ بالمنديل كبرهان على عفة ابنتها . ولا اعتبار لشعور العروس ، إذ الصدمة تكون قاسية في بعض الأحيان .

ويتم بعد ثلاثة أيام من قطع الرحط مراسم «الجيرتق»[٧] إذ يوضع في وسط الحوش عنقريب مغطى ببرش أسود وملاءة مطرزة . ومن المألوف أن تكون العروس هي التي قامت بتطريزها وتتكون الملاءة في العادة من قطعتين من القماش الأبيض طولها

حوالى متران أو ثلاثة تتم حياكتهما معا. وتطرز الملاءة إما بغرزة الصليب وتسمى «بروديه» إنجليزى أو «تخريم منسج» أو غرزة سادة «تبريز» وبعض الأشكال البدائية جدا تمثل نخيلا وطيوراً وحيوانات وزهوراً مرسومة بواسطة الفتيات أنفسهن والتطريز متعدد الألوان. قد يكون في بعض الأحيان بلون أزرق أو أبيض أو كريم فقط . وتوضع وسادة دون تطريز على الملاءة. ويوضع بالقرب من جانبى العنقريب وسادة أو اثنتين. وتجلس العروس والعريس جنبا إلى جنب في اتجاه الشرق، بينما تجلس في مواجهتهما النساء اللواتي سيتولين المهمة، ويوضع إلى الجانب الأيمن للعنقريب طاولتان صغيرتان، إحداهما للأشياء التى تخص العريس والأخرى للأشياء التى تخص العروس. وعلى كل منهما حُق كبير ذو ألوان حمراء وسوداء، وأطباق صغيرة مع الجيرتق والمباخر وزيت السمسم وزجاجات العطور. ويجلس العريس الذى يرتدى جلباباً أبيض إلى يمين العروس الملفوفة فى «فركتها». أما النساء اللواتي يجلسن أمامهما فقد تم اختيارهن خصيصاً لهذا الشرف. وبمجرد أن يأخذ الجميع أماكنهم، ويتم إحضار أطباق الزيت والودك والعطور الذى يشكل «الكركار» - طبق كبير للعريس وآخر صغير للعروس وتوضع على طاولة كل منهما، وتأخذ كل امرأة يدى الشخص الذى يجلس أمامهما وتغمسهما فى الدهن وتضعهما على رأسه أو رأسها، وتكرر هذه العملية مرتين. ثم تأتى بعد ذلك عملية

كساء الرأس بوضع الدهن الأبيض بشكل وافر على الرأس. ويتم لف قطعة قماش حول الجبهة لمنع انسيال الدهن على الوجه. وتوضع العطور الجافة المكونة من مسحوق خشب الصندل والمحلب فوق الدهن مما يشكل غطاء للرأس ذا لون قرمزى، ثم ترش العطور على الرأس وعلى الحاضرات اللواتى يزغردن ويغنين ويصفقن. ويتم نزع قطعة القماش التى كانت تحيط بالجبهة. وينظف الوجه ويربط هلال ذهبى بخيوط حريرية حمراء وزرقاء فوق حاجبى العريس.

وتأتى الآن عملية لبس الجيرتق الذى يمثل النقطة الحاسمة فى هذا الطقس، فالجيرتق مكون من مجموعة من الخيوط الحريرية الأرجوانية الحمراء يتدلى منها خصلة وملضوم فى الحرير ما يلى بالنظام ذاته دائما:

(أ) خرزة خضراء كبيرة جدا.

(ب) فقرة من فقرات السمك (كيلى).

(جـ) خرزة بيضاء صغيرة (رحيمى).

(د) خرزة خضراء باهتة ذات حجم متوسط (سولوك)

ويرتدى الجيرتق كل من العريس والعروس فى اليد اليمنى كما تلبس العروس أيضا فى معصمها الأيمن خرزة حمراء تسمى «الضمرات» كما يلبس العريس فى معصمه الأيمن سوارا من الفضة بنفس حجم وشكل خلخال العروس. ويلبس الرجل الجيرتق لمدة تسعة أيام - ويعتبر أسبوع مناسب بالنسبة

للعاملين في الحكومة - أما المرأة فتلبسه لمدة شهر . لقد اكتملت الآن كل مراسم التزيين . ويقوم ضيوف الفتاة باستخدام ما تبقى من الدهون والعطور . ويعطى كوب من اللبن إلى العريس الذى يأخذ منه ملء الفم «ويبخه» على العروس، وتنسحب العروس إلى حجرتها ، ويستعد العريس والفتيات للسيرة ، وتضاء المصابيح ويسير العريس فى المقدمة حاملا سوطه ويحيط به رفقاؤه وأقاربه من الرجال والنساء والفتيات فى الخلف ، يغنين ويصفقن ويزغردن ، ويدور العريس وهو يلوح بسوطه تجاه النساء اللواتى يزغردن بحماس ، ويتوقف الموكب عند تقاطع الشوارع المهمة ، ويصل أصدقاء جدد ويحيون العريس بهز أصابع أيديهم اليمنى فوق كتفه الأيسر، ويتحمس البعض منهم وتثار مشاعرهم ومن ثم يخلعون قمصانهم ويعقدون أذرعتهم فوق صدورهم ويقفون قبالة العريس الذى يثار مثلهم ويقوم بضربهم على ظهورهم بسوطه عبر أكتافهم بحماس شديد ، وتزغرد النساء بقوة وترقص الفتيات بحماس حول العريس ، ويستأنف الموكب سيره . ويستمر هكذا لساعات فى بعض الأحيان ، وإذا ما تقرر إنقاص مدة العرس عن المدة المقرر وهى سبعة أيام ، وقد يتم إحضار العروس للعريس فى الليلة ذاتها ، ولكن إذا ما كانت الأيام السبعة هى التى تم الإبقاء عليها ، فإن ليلة الدخلة تؤجل إلى الليلة التالية .

وفي ظهر اليوم السابع تدخن العروس لأول مرة في حياتها. إذ حمام الدخان امتياز مقصور على النساء المتزوجات اللواتي يعشن مع أزواجهن، وتحفر لهذه المناسبة حفرة مستديرة في أرضية الغرفة الترابية، وتوضع أخشاب عطرية مثل خشب الصندل لتحترق وتدخن بدون لهب، ويوضع برش مستدير ذو فتحة مستديرة في منتصفه، توضع قطعتي خشب على حافة الحفرة لتجلس عليه المرأة التي تلتحف حتى رقبتها بشملة، ويلتف الدخان حول كل جسدها العاري. وتجعل الحرارة الداخلية التي يولدها الاحتراق البطيء للخشب في الحفرة عرقها يتصبب بغزارة. ويعتقد أن هذا الدخان يجعل الجلد ذو عبير والعظام لينة. وتبقى المرأة في هذا الحمام عشرين أو ثلاثين دقيقة، ثم تدلك بزيت وتعطر وتلف بإحكام بشرائط من الأقمشة القطنية أو مادة أخرى قوية في عدة عقد حول وسطها لكي يقوم العريس «بحل الحزام».

وفي الغرفة الخاصة التي ستكون للزوجين المتزوجين حديثا، يتم إعداد سرير أو عنقريب بمراتب جديدة وأفضل الملاءات. وفي الليل ترافق العروس أمها وقريباتها إلى باب الحجرة ويسلمنها إلى العريس. ويستغرق اللقاء ساعة أو ساعتين يتم خلالها تعارفهما وتناضل العروس بشدة ضد محاولات زوجها لحل العُقَد «حل الحزام» ويؤدي الصراع في بعض الأحيان إلى خلع كتف العروس مما يحتاج إلى معالجة طبية. ولا تنتهي كل

ليلة دخلة باكتمال الدخلة. ولكن بمجرد الدخلة يجب على العروس والعريس الذهاب إلى النهر برفقة امرأة كبيرة السن حبوبة (جدة) وبعض القريبات لتقديم القرابين «تقدمات» المعتادة إلى النيل وهن يحملن مبخرة فيها فحم مشتعل يوضع فيه «قرض»[٨] ولبان وخشب صندل، كما يحملن أيضا طبقا عليه حلوى وتمر وحبوب. وكانت الحبوب قد تم إنباتها قبل أيام «زريعة»، وعندما يصلن إلى النهر تأخذ الجدة بعض الحبوب التى تم إنباتها وتضعها فى المبخرة. وتحت غطاء الدخان تقوم بإلقاء بعض من تلك الحبوب فى النهر ثم التمر والحلوى. ويقوم العريس بغسل وجهه ويديه وقدميه فى مياه النهر. وتنتظر العروس. وتقوم الجدة بغسل وجه ويدى وقدمى العروس. ثم يعود الموكب إلى البيت فى مرح صاخب. ولا يذهب العريس إلى النهر مطلقا بعد بدء القران وقبل اكتمال الدخلة وإلا فإنه سوف يصيب العروس «بكبسة» العقم.

وفى صباح اليوم التالى يتناول الأقرباء والأصدقاء طعام الإفطار المكون من العصيدة والشعيرية والفاكهة. ويقدم هذا الطعام على صينية كبيرة معدة بشكل دقيق ومغطاة بطبق من الخوص زاهى الألوان. وتعاد الأطباق الفارغة ومعها هدية من التمر أو الحلوى أو الفول السودانى.

وفى اليوم السابع أو بعد ليلة الدخلة، إذا ما كانت الدخلة قد تمت يذهب العريس إلى السوق لشراء كل أصناف الطعام

والصابون والكبريت وحتى «المساويك» ولكن إذ لم تكن الدخلة قد تمت، فليس له الحق فى ترك المنزل، وتذهب والدته بدلا منه.

وإذا كانت الأسرة ميسورة الحال فإن الأفراح قد تستمر لمدة أربعين يوما، ومن ثم تذهب العروس إلى النهر مرة أخرى. ويذبح خروف ويأتى الزوار ويمرحون. ولا تفعل العروس شيئا طوال الأربعين يوما، وتقوم أمها وأخواتها وقريباتها الأخريات بتغذيتها والعناية بها. كما تستمر فى مقاومة زوجها كل هذه المدة، وترفض التحدث معه وتغطى وجهها فى أى وقت يدخل فيه الحجرة، ولا يتم غسل ملابس الزوج أو الزوجة خلال الخمسة عشر يوما الأولى. ومع اكتمال الأربعين يوما - إذا ما كان الرجل راضيا عن زوجته - يجب أن يعطيها هدية من المال أو الملابس أو الذهب. وإذ ما رغب وكان لديه منزل خاص به فبإمكانه نقلها الآن من المجمع السكنى لأسرتها. ومن المعتاد أن يعيش المتزوجان حديثا فى المجمع السكنى لوالد الفتاة حيث يمنحان غرفة منفصلة قليلا عن بقية الأسرة. وإذا ما كان الرجل يعمل بالحكومة فبإمكانه العيش فى المكان الذى يعمل فيه ويترك عروسه مع والديها.

وتعتاد العروس بالتدريج على الحياة المستقرة، وتقوم بالطبخ والغسل وبكل الواجبات المنزلية الخاصة بمسكنها الجديد. ويسمح لها الآن طبقا للعادة التحدث مع زوجها، ولكن يجب

ألا تأكل أو تشرب فى حضوره، حتى إنها تغطى فمها عند الحديث معه. وكما تقول المحبوبات «الجدات» (قد جعلها امرأة وهو لا يحتاج ليرى فمها) وغير مسموح لها بنطق اسم زوجها أو حماها.

ومن العادات المتبعة أنه إذا ما كان الرجل متزوجا من قبل فليس عليه إجراء كل الطقوس المطلوبة بالنسبة للعازب، حتى إنه لا يقود العروس أثناء رقصها فى يوم قطع الرحط، ولكنه يساعد كمتفرج، وإذا لم يكن قد تزوج من قبل وكانت من تزوجها متزوجة من قبل فبإمكانه إجراء كل الطقوس.

ويمكن هنا ذكر بعض المعتقدات المرتبطة بالزواج. فإذا كانت هناك امرأة تضع الحنة وجاءت إلى العرس قبل ليلة مراسم الحنة فيجب عليها ألا تقترب من العروس إلى أن يتم إجراء المراسم. كما يجب اتخاذ الحيطة والحذر بالنسبة للمرأة التى ترتدى حليها الذهبية وتأتى إلى العرس قبل أن ترتدى العروس حليها الذهبية. إن عدم الحذر واتخاذ التدابير الوقائية قد يؤدى إلى إصابة العروس «بالكبسة»، وإذا ما كان هناك عروسان يجريان فى المكان ذاته وشاهد العروس الأولى فلا يجب على الإنسان الذهاب ورؤية العروس الثانية.

وعندما تنتهى الأيام الجميلة لاحتفالات الزواج وتكون العروس قد سلمت إلى عريسها، فإن الزوجين الجديدين يبدآن حياة جديدة. وما زال مطلوبا بالنسبة للشهور القليلة الأولى أن

تبدى العروس بعض الخجل. إذ يجب أن تقاوم أى اقتراب من زوجها وربما لا تتحدث إليه أو تنظر إليه مباشرة. وعندما تنتهى هذه الفترة يجب على الزوج إذا كان مسرورا منها أن يقدم إليها هدية. ومن هذه اللحظة فلاحقا على الزوجة - إذا اعتبرت أن الهدية مناسبة - أن تتصرف معه بطريقة طبيعية. ولكن غير مسموح لها مطلقا أن تأكل أو تشرب معه أو حتى فى حضوره أو أن تذكره باسمه أو تخاطبه باسمه.

وإذا كانت العروس قد ذهبت إلى منزل زوجها وكانت حماتها راضية عنها، فإنها تعهد لها بالأعمال المنزلية الخفيفة لكى لا ترهق نفسها وترتاح لتصبح قادرة على إنجاب مولود موفور الصحة.

العقم

الزواج العاقر عرضة للطلاق. لذا فكل النساء المتزوجات يلبسن أحجبة وينفقن الكثير من المال بحثا عن مساعدة «الفكى» أو الشيخ (السحرة)، وإذ لم تحمل المرأة بعد شهور قليلة من الدخلة فسوف تبدأ فى البحث عن المساعدة. فربما يتطلب الأمر حجابا (يحتوى على دعوات سحرية) من فكى شريطة أن يدخر امتياز قص شعر الوليد لأول مرة للفكى (بسبب النقود التى تدفع عند طقس قص الشعر)، وقد يحدث فى بعض الأحيان أن الأسرة قد تنتقل بعيدا عن مكان سكن

الفكى ويصاب الطفل بمرض جلدى يتطلب حلق رأسه، إلا أن الأم تقاوم بشدة أى اقتراح بقص الشعر. ويتم فى بعض الأحيان التوصل إلى اتفاق بمقتضاه يتم ترك خصلة شعر فى الجزء السليم من الرأس ليقوم الفكى بقصها. ويتم إزالة بقية الشعر. وفى الشهر السابع يكون قد حل الوقت الذى حدد للحلاق لأول مرة. وتسافر الأم لأية مسافة إلى منزل الفكى مع وليدها وبعض أقربائها لإنجاز الشرط المفروض.

وإذ مر عام أو عامان من الحياة الزوجية ولم تحمل المرأة فسوف يتم اتخاذ إجراءات أكثر صرامة. ويتم جلب بعض مياه النيل وتصب فوق المرأة الجالسة فى طشت. وبعد أن تجف وترتدى ملابسها تعصر ملء كوب من الماء على رحمها تحت ملابسها. ويتوقع نتائج إضافية محتملة من الحج إلى بيت الخليفة أو إلى قبة المهدى فى الليالى المقمرة. ففى الحالة السابقة تتم مواجهة المرأة بشكل فجائى بتمثال لمحارب قديم يلوح بسيفه. ويتم إجراء ذلك «لإخافتها لكى تحمل» كما يقال. والطريقة الأخرى هى أن يتم إمساك ملء كوب من مياه النهر بداخله بعض المسامير الصدئة تحت ملابسها وتضغط به على رحمها. ويتم فصد ساقها بموسى. وعليها أن تمشى إلى الجبانة القديمة خارج أم درمان.

وفى بعض الأحيان تؤخذ المرأة برفقة قريباتها أو صديقاتها - بصحبة الشيخة لتؤدى المهمة - فى نزهة فى قارب إلى التقاء

النيلين، وعندما يتشتت انتباه المرأة تقوم الشيخة بجرح، ساقها بموسى.

الحمل

ينصح بعدم الإعلان عن الحمل في وقت مبكر خوفا من العين الشريرة «الحسد» وإلى أن يبلغ الجنين ستة أشهر على المرأة أن تخضع للحقوق الزوجية لزوجها، ولكن من بداية الشهر السابع يجب أن ترفضه وإلا فإن الاعتقاد العام يقول إن الطفل سيولد «غير نظيف» ويجب على الزوج أن يكون حريصا جدا بمجرد إخباره بأن زوجته حامل، إذ عليه عدم قتل أى مخلوق حى، إذ إنه بذلك ربما يقتل الطفل فى رحم أمه. لذا فالجزارون من كبار السن الذين لا يحتمل أن تكون زوجاتهم حوامل هم الوحيدون الذين باستطاعتهم بيع اللحم. ولكن الذبح الحقيقى يقوم به رجال كبار فى السن أصبحت زوجاتهم فى سن لا يحتمل الحمل فيه. حتى إن جرح مخلوق حى بواسطة والد المستقبل يفترض أنه يجرح الطفل أيضا.

وربما تطلب المرأة الحامل فى شهرها السابع العودة إلى منزل والدتها لتضع طفلها تحت رعاية أمها. وغالبا ما يوافق الزوج حتى ولو تطلب الأمر عبور النهر أو رحلة بالقطار. ولكن إذا كان من المستحيل سفرها فإن والدتها سوف تأتى. وبشكل خاص إذا كانت هذه هى ولادتها الأولى «البكرى».

وحالما تشعر الأم الحامل أن الآلام الأولى تبشر بـ «الحدث الكبير» فإنها ترسل لدايتها التي تتوقع دعوتها. وتصل ومعها صندوق الأمومة ومعها تلميذتان أو ثلاثة من مدرسة الدايات، وتقوم بتوليد الأم بكل سهولة. وكل نساء أم درمان والسودان الشمالي مختونات منذ الصغر وهن في حوالي سن العاشرة. لذا ففي المرحلة الأخيرة للمخاض على الداية شق العجان (الشرج) لتسهل الولادة، وتمنح هدايا من المال والملابس من زوجها مكافأة على المعاناة في الولادة.

وعلى المرأة خلال كل فترة الحمل والولادة، أن تكون صامتة ولا تصرخ أبدا حتى وإن كانت ولادتها الأولى، وإلا فإنها ستصبح أضحوكة من كل صديقاتها. والسرية غير معروفة أثناء الوضع، إذ تتجمع الأمهات والشقيقات والجارات والجدات والعمات والخالات ومجموعة من الصديقات، وحتى الأطفال يحتشدون في الغرفة يثرثرن ويقدمن النصائح، ويشجعن ويساعدن المرأة التي تعاني. كما يمتلئ الحوش بالجيران الذين يتمنون الخير للوالدة والمولود. وتستمر الضوضاء بعد الولادة بالعناية بالأم والمولود وتزغرد النساء عند ولادة أول طفل ذكر. أما إذا كان القادم فتاة فتقابل بالصمت. ولكن الطفلة يرحب بها بسرور مثل الولد. وتأسف بشدة العديد من النساء لسوء حظهن إذا ما ولدن اثنين أو ثلاثة ذكور على التوالي، إذ إن نمو

أول طفلة هو مساعدة كبيرة لأمها فى أداء الواجبات المنزلية.
ويحب السودانيون أطفالهم، وكثيرا ما يشاهد أب سعيد وهو يستعرض في الشوارع وهو يحمل على ذراعه ولدا أو بنتا. ويحدث بشكل نادر المعاملة القاسية للأطفال. ولا يحدث هذا إلا فى حالة وجود زوجة أب أو أن يكون للزوج زوجة أخرى.

ويتولى رعاية اليتيم أقرباؤه أو حتى جيرانه. وفى بعض الأحيان فى الأسر التى بها أطفال كثيرة قد تأخذ العمة أو الخالة أو الجدة ولدا أو بنتا وتقوم بتربيته وتعليمه وتزويجه.

وبعد الولادة

وبمجرد انتهاء الولادة وترتيب الحجرة، ترتاح الأم وترتدى ملابس جديدة (مهداة من زوجها) ويلف الرضيع فى أقمشة ناعمة نظيفة. ويرقد بجوار الأم، ويوضع على العنقريب مصحف ملفوف بمنديل ومعه مرود، وفى حالة أول ولادة ترتدى الأم حليها الذهبية وتلف نفسها بثوب العرس (الفركة القرمصيص) ويغطى عنقريبها بالبرش المزخرف. كما يوضع على طاولة بالقرب منها طبق به «عيش» (حبوب الذرة) وحربة عليها قطعة قماش بيضاء (فى حالة أن المولود ولد) مغرس فى ركن العنقريب. وفى بعض الأحيان - طبقا لعادات القبيلة - يوضع سكين على العنقريب. ولا تترك مطلقا الأم والطفل بمفردهما فى الحجرة، وتتخذ كل أنواع الحيطة ضد «أم

الصبيان»[٩] الشريرة التي يعتقد أنها تبدل الوليد الجديد لشيطان أو تضع سحرا يجعله أبله تماما بعيون بارزة ولسان يتدلى من فمه. ونسبة لأن التزاوج بين أبناء وبنات العم يحدث بشكل كبير، فإن عددا لا بأس به من الأشخاص ضعاف العقول وحتى من ذوى السمات المرضية أو العقلية قد يكون سببه هذا التزاوج، مما يدعم الاعتقاد فى الخرافات.

ويفترض أن القرآن يحفظ الطفل من أم الصبيان، بينما المرود يحفظ الأم من الشياطين. وعلى الأم حمل المرود حتى عندما تذهب لقضاء الحاجة. وترتاح الأم على عنقربيها لمدة أربعين يوما دون عمل وتقوم برعايتها أسرتها أو أقرب أقاربها. ولا يتم مطلقا أخذ الطفل خارج الغرفة خلال الأربعين يوما، ولكنه إذا مرض وكان من الضرورى أخذه إلى العيادة، فيتم حمل المرود معه، وعلى الأسرة أن تقدم «كرامة» فى اليوم الثالث والخامس عشر والأربعين. ففى اليوم الثالث ترسل المديدة - عصيدة من التمر - إلى الأصدقاء مع البسكويت المصنوع على هيئة أصابع، وزيت لصناعة «الدهن الأبيض» وعادة ما تسهر القابلة على صحة الأم والطفل لمدة سبعة أو عشرة أيام. وفى اليوم السابع يكحل الطفل ويرسم صليب على الجبين - إن كان ولدا - وخطان أو ثلاثة على الصدغ إن كانت بنتا.

ويسمى اليوم السابع «السماية» وحتى هذا اليوم لا يجب على الوالدين الإعلان عن اسم المولود. ويجتمع الأقارب

والأصدقاء والجيران ويتم تقديم الهدايا النقدية. ويقدم الشاى والقهوة والمشروبات والتمر والحلوى. وفى اليوم الخامس عشر من ولادة الابن والثالث والعشرين فى حالة البنت تدخن الأم. ولأنها لا تترك حجرتها يتم حفر حفرة جديدة فى غرفتها. ويجب أن تذهب الأم ومولودها فى اليوم الأربعين بعد الولادة إلى النهر. وفى تلك المناسبة تتجمع القريبات والصديقات والجارات عند غروب الشمس. ويتم إعداد طبق كبير من «البليلة» وتتكون «البليلة» من نوعين من الحبوب - الذرة الشامية واللوبيا - اللتين يتم إنضاجهما معا. كما يتم وضع بعض التمر والحلويات فى سلة.

وتحمل النفساء (الوالدة) المرود وزجاجة صغيرة بها كحل وتحمل إحدى الحاضرات الطفل، وكذلك طبق البليلة والتمر وصفيحة قديمة بها كل الخرق التى استخدمت فى تنظيف الطفل خلال الأربعين يوما، ويسير الموكب بهدوء بينما ينضم إليه فى الطريق الصديقات اللواتى تقع منازلهن على طول طريق الموكب. ولأن النفساء تكون عادة فى حالة ضعف شديد بعد أربعين يوما من عدم الحركة، فإنها تتحرك ببطء، وتكون عادة فى آخر الجماعة، ولكن على شاطئ النهر على الكل الانتظار حتى وصولها ودخولها فى النهر، وتسير خطوات إلى أن يصل الماء إلى كاحليها. وتقوم بإلقاء حفنة من البليلة فى الماء وتغسل يديها ووجهها وقدميها وتخرج. ثم تدخل المرأة حاملة

المولود – في العادة الأخت أو قريبة – في النهر بعدها. وتلقى البليلة نيابة عن المولود وتغسله بالطريقة ذاتها. وتلقى القريبات الأخريات التمر والحجارة في الماء، وبعد ذلك على الجميع أن يغلسوا أيديهم ووجوههم وأقدامهم، وقد يستحم البعض منهن، أما اللواتي لا يستطعن دخول النهر فيتم جلب الماء إليهن بالأكف، وتضع النفساء وهي جالسة على شاطئ النهر الكحل في عينيها ثم تعطي الكحل والمرود إلى أقرب القريبات. وبعد أن يأكلن البليلة والتمر، تفرغ محتويات الصفيحة في النهر. وتقوم النفساء قائلة باسم الله، وتعود إلى المنزل بهدوء. ويدعى الجميع لشرب الشاي والقهوة في المنزل.

وبعد أن يبلغ عمر المولود أربعين يوما يتم وضع خيط به خرز حول معدته. وليس ضروريًا أن يكون الخرز من لون معين. وقد يتكون ببساطة من خرزة واحدة ويسمى هذا «بالحقو» ويفترض أنه يمسك ما يرضعه الطفل من لبن أمه. وعندما يبلغ سن المولود سبعة أشهر، يتم قص شعره لأول مرة وتترك خصلة ليقوم الفكي بقصها. وفي فترة التسنين يحصل الطفل على فقرة من فقرات سمك خاص، وتسمى هذه بالرضاعة. ويتم تعليقها على صدره مع قطعة من جلد الماعز مشبعة بالعطور. وإذا تأخر الطفل في التسنين تقوم الجدة بإجراء ثلاثة فصدات على ركبتيه وتدعكهما بالنطرون. أما إذا تأخر لأكثر من ذلك فتتم زيارة لقبر الشيخ خوجلي في الخرطوم بحري.

هوامش وتعليقات

١ - الدلوكة: نوع من الطبول يستخدم في الأفراح (شكل ٥).

٢ - هذا في المدينة، أما في قرى الشمال فكانت الفتاة تستعد للزواج «بضفر» البروش (جمع برش) الملونة والمزخرفة بشتى الألوان والزخارف والأحجام. هذا بالإضافة إلى «فتل» كميات ضخمة من الشعيرية يدويا لاستهلاكها طوال أيام العرس.

٣ - الفركة والقرمصيص: أنواع من الثياب النسائية كانت تلبس في مناسبات الزواج والولادة.

٤ - الشبال: عادة في الأعراس، حيث ترقص الفتاة أمام الشاب ويهز يده وينحني أمامها فتستجيب له بإلقاء شعرها الطويل على رأسه أو كتفه.

٥ - لا تدخن أو تتحن الفتيات غير المتزوجات.

٦ - الرحط: عبارة عن شريط من الجلد يوضع حول الوسط وتتدلى منه سيور جلدية رفيعة. يقول الشيخ عبدالله عبد الرحمن في كتابه «العربية في السودان، دار الكتاب اللبناني، بيروت الطبعة الثانية، ١٩٦٧» (من ملابس النساء في السودان «الرحط» وهو نقبة من جلد أحمر يشقق سيورا، ليس له حجزة ولاساقان، يشد كما تشد السراويل. تلبسه الفتيات قبل إدراكهن فإذا أدركن أو تزوجن خلعنه. وهو عام في السودان ماعدا البقارة كالمسيرية والهبانية والتعايشة والزريقات......... وتتأنق السودان في الرحط فيجعلون له سيورا دقيقة جدا كخيوط الحرير ويرصعونه بالخرز (والودع) وكانت العرب تلبس الرحط كالسودان) (شكل ٦).

كما نجد في لسان العرب «الرحط جلد يشقق سيورا عرض السير أربعة أصابع أو شبر، تلبسه الجارية الصغيرة قبل أن تدرك وتلبسه أيضا وهي حائض».

إن قول الشيخ عبدالله عبد الرحمن «.... تلبسه الفتيات قبل إدراكهن فإذا أدركن أو تزوجن خلعنه» محل نظر، إذ تجمع كل المصادر على أن الفتاة تستمر في لبس الرحط إلى أن تتزوج سواء أدركت أي بلغت أو لم تبلغ. أي أنها تستمر في لبسه وهي بالغة

حتى تتزوج وعند ذلك فقط تخلعه. أى أن خلعه مرتبط بالزواج وليس بالإدراك.

ويسمى الرحط فى اللغة النوبية الدنقلاوية بيي Beyye لذا فهم يسمون الفتاة البكر أى التى لم تتزوج بيى - كول أى ذات الرحط أو أم رحط، دلالة على أنها فتاة أى غير متزوجة، ولم يقطع رحطها.

٧- يقول كاتب المقال ربما يمكن لبعض القراء تفسير أصل جبرتق، لذا يبدو أنها كلمة غير عربية . ويقترح إبراهيم أحمد الاشتقاقات النوبية التالية جيتى jitti الخرز.أو جونتى : jonti

إنجاب الأولاد أو جورتى jurti القرض (ثمر السنط. إذ ما زال يستخدم دخان القرض الذى يدفع الشر .أ.هـ).

أما الأستاذ إبراهيم أحمد (توفى عام ١٩٨٨) فهو رجل الدولة الذى ارتبط اسمه بمذكرة الخريجين الشهيرة، ثم أصبح عضوا فى حزب الأمة ثم عضوا بلجنة الحاكم العام التى أصبحت مجلس السيادة فيما بعد، ثم وزيرا للمالية.

٨- القرض: القرظ، ثمار شجر السنط يستخدم فى أغراض كثيرة فى التداوى. كما يستخدم فى دباغة الجلود.

٩- أم الصبيان: إنهم يخافون بشكل حقيقى من أم الصبيان التى تصور على شكل امرأة عجوز مخيفة كريهة المنظر، ذات قوى تدميرية جبارة. ولا يستطيع سوى فكي قوى أن يكتب أحجبة لإبطال عملها أو استرضائها. إنها لعنة الأمهات الحوامل. وهى تسبب الإجهاض والعقم وشلل الأطفال. وأى شخص يصاب بالشلل سيكون سببه أم الصبيان. كما يخافون من أن تستبدل الشياطين أحد أطفالهم المعتوهين بطفل آدمى سليم، لذا فعندما يسبون معتوها يقولون له «المبدل» وللوقاية من الاستبدال يجب عدم ترك الأطفال وحدهم فى الأربعين يوما الأولى بعد الولادة والتى تكون فيها الأم خلالها حبيسة البيت.

كما يفترضون أن الألبينو Albino (شخص لبنى البشرة أبيض الشعر قرنفلى العينين) الذين يولدون أحيانا من أبوين أسودين «مبدلين» ويسمى مثل هؤلاء الأطفال بالحورى.

عادات و معتقدات عند الرباطاب

تشرح الرواية التالية لماذا يسكن الرباطاب فى أسوأ أرض فى منطقة أبو حمد. يقال إنه فى الأيام السالفة كانت كل البلاد الواقعة ما بين الخرطوم ودنقلا تخص شيخًا عظيمًا يسمى الجعلى وعندما شعر هذا الشيخ بدنو أجله أرسل فى طلب كل أبنائه ودعاهم للعيش معًا فى سلام بعد وفاته. ودعا رباط أكبر أبناء الشيخ إخوته، أى ميرف الذى جاء منه الميرفاب، والشايقى والجعلى الصغير وعنقر، وهو ابن أَمَة، والذى جاء منه العنقرياب. وعندما التقوا جميعًا قال رباط لإخوته الآن وقد تركنا والدنا وورثنا الكثير ودعانا لنعيش معًا فى سلام، فلنحاول جميعًا تحقيق رغبته. ولكن قبل كل شىء علينا تقسيم التركة أنتم تعلمون كيف أن الإخوة دائمًا ما يتعاركون حول تقسيم ثروة أبيهم. إننى أكبركم وسوف أضرب لكم مثلاً فى كيف يمكننا أن نعيش جميعًا فى سلام طبقا لرغبة أبينا، إننى سوف أختار أولا، وسوف أختار الأراضى الصخرية جنوبى أبو حمد، ومن ثم فإن كل الإخوة تعجبوا لتضحية رباط وقاموا بتقسيم بقية التركة دون عراك. وهذا سبب سكنى الرباطاب فى الأراضى الصخرية فى منطقة أبو حمد.

تقديس الأولياء

تؤمن كل جماعة في ولي يتم تقديم الهدايا له في مناسبات حلاقة رأس الأطفال وختانهم وزواجهم . كما يؤمنون بأن التأخير في الوفاء بهذه الهدايا سوف يؤذي الطفل ما لم يكن هناك عذر. وأن عدم الوفاء بهذه الهدايا سوف يؤدي إلى وفاة الطفل. كما يعتقدون أيضا أن النذور عند القبور تصل الميت وأنه يقوم بأكلها . وأن أي شخص يأخذ أي شيء يتم وضعه على قبر الولي سيتعرض للأذى في الحال. كما أن الأحكام التي وضعتها الأجيال السابقة يجب - كما يعتقدون - اتباعها بشكل أعمى دون أي تغيير أيًا كان. كما يجب الإيمان بقصص المعجزات المنافية للعقل التي حققها الولي مهما كانت غامضة أو مبهمة أو حتى مستحيلة. وأي شخص يقدم البراهين على عدم صدقها يهاجم بعنف ويعد زنديقا. إنهم يؤمنون على سبيل المثال بأربعة أولياء أشقاء يسمون أولاد البوش، الذين بنوا مسجدا على جزيرة «ارتال» بسقف يرتكز على أربعة أعمدة حجرية جلبها هؤلاء الأولياء من الصين. وكل عمود مكون من قطعة حجرية واحدة مستديرة وفي لون المرمر، وتجرى الحكاية على أن أصغر الأربعة سبقه الآخرون وتركوه خلفهم عندما طاروا بالأحجار وسخروا منه، لذا فقد غضب وقذف بقوة حجره ومن ثم تحطم الحجر وعاد وأتى بحجر آخر كان مختلفا عن الحجارة الثلاثة الأخرى في الشكل واللون. ولا يعرف أحد

مدى العمق الذى حفر فى الأرض لتثبيت هذه الأعمدة. كما يقال إن لهذا المسجد تسعة وتسعين نافذة لا يدخل الشمس من أى منها. ومازال العمود المكسور يرقد بجوار المسجد ويتلقى منه الناس البركات.

وهم يقسمون بالولى بخوف ومهابة ويفضلون القسم على القرآن. وإذا ما زار شخص جبانة بها عدة أولياء مدفونين هناك، ويرغب فى تقديم نذور لهم جميعا فإنه يضعها فى قدر موضوع خصيصا لهذا الغرض يسمى «اللمة» وينذر الرجال والنساء وغير المتزوجين للأولياء للحصول على تحقيق أمنياتهم ورغباتهم. كما تنزع العذارى سيورا مع أرحاطهن ويربطنها حول الرايات التى على قبر الولى. وأى إنسان يفوز بإمساك راية الولى سيرى رغبته تتحقق وهذه الراية سوف تحمى أى شيء من السرقة، وأى شخص يرتكب جريمة ويفر إلى قبر الولى يضمن لنفسه العفو عن جريمته، ولكنه يعد جبانا. ويعتبر فعله فعل شخص جبان وعمله عملا شائنا، وقد يؤخذ المجنون إما إلى قبر الولى التماسا للشفاء أو إلى ولى حى يقوم بقراءة تعازيم سرية عليه ويضربه بالسياط ويحرمه من كل أنواع الطعام وفى بعض الأحيان أى طعام كلية لعدة أيام.

كما يؤمنون بنساء من الجن يسمونهم الحور، ذوات بشرة بيضاء وشعور طويلة ناعمة، ويعشن فى النهر، وفى بعض الأحيان تخرج حورية من النهر ولا يراها سوى من تمسك به

وتشده إلى داخل النهر رغم استغاثته. ويزعم الناس أن بعض الرجال عادوا بعد سنوات وأخبروهم بأن للحوريات مساكن وقرى تحت النيل، وأن هناك رجالا حدث لهم ذلك وهم يعيشون اليوم وسط الرباطاب.

كما يزعمون أيضا أن الشريف الحقيقي (من نسل النبى) لا تمسه النار. وأن هناك أسرة من الأشراف في منطقة الرباطاب تسمى «البرايداب» يمكنها التقاط إبرة من داخل قدر به ماء يغلي. وبإمكان البعض منهم إنضاج اللحم على أيديهم، وهناك ولي يستطيع بلع عدوه بلحمه وعظمه. وهناك ولي يسمى الفكي سليمان بلاع الرجال. وهناك ولي آخر أمر فرس نهر بالخروج من النهر وإدارة ساقيته مثل الثور. وعندما رفض فرس النهر العمل قام الفكي بضربه بسيف خشبي طوله ذراع، ومن ثم قام فرس النهر بإدارة الساقية في الحال.

الإجراءات التمهيدية للزواج

يتوقع أن تتزوج الفتاة ابن عمها مهما كان التفاوت في الثروة أو السن بينهما. وربما تضرب الفتاة حتي توافق. كما أن الصبى الذى يرفض يد ابنة عمه ربما يعامل بالطريقة ذاتها. كما تقضي التقاليد أن الأرملة التي يتوفى زوجها تتزوج من قريبه المباشر حتى ولو كان طفلا، وعليها أن تنتظره إلى أن يكبر، وإلا فإنها ستخسر كل حقوقها في ممتلكات زوجها وفي الأطفال.

ويقوم بالخطبة فى المقام الأول والدا كلا الطرفين دون استشارة الزوجات . ويقوم والد الفتاة بعد ذلك بإبلاغ زوجته إذا كان العريس هو ابن أخيه . وليس ضروريا موافقة الزوجة . ولكن إذا كان العريس أجنبيا فإن موافقتها مطلوبة . وبمجرد إقرار الخطوبة ، فإن عريس المستقبل يتجنب الأكل مع حماه المستقبلى أو مقابلته . كما تحفظ عروس المستقبل بعيدا عن العريس ، ويتم إرسال الملابس والنقود والعطور لها . ويجب أن يقوم بأداء الخدمات لأهلها دون مقابل . ولا يحق له استرداد أى شىء قدمه لها إذا ما غير رأيه ، ولكن إذا غير أهل عروسه رأيهم فله الحق فى تعويض .

وفى ذات الوقت يكون الأب قد أعد كل المهر «الطعمة» . وهو عبارة عن أشجار نخيل وأراض ، هبة منه لإعالة الزوجين دون إضرار بحق الابن فى بقية ممتلكاته ، . أما «الطعمة» فهى مبلغ من المال يعطى إلى أبى العروس طبقًا لاتفاق مبدئى لتمكين الأخير من توفير متطلبات ابنته وجواهرها . وربما يحتفظ بجزء من هذا المبلغ لنفسه دون حرج إذا كان فى حاجة ماسة له .

الأعراس

إن معظم مظاهر أعراسهم هو الرقص المصاحب للأغانى «والدلاليك» والتصفيق . ويقف الرجال والنساء فى صفين

متقابلين تحت ظلال الأشجار في النهار وفي ساحة مكشوفة في الليل. ويتقدم رجلان يصفقان ويدقان بأقدامهم بمصاحبة الربابة، وتبرز امرأة يتم استدعاؤها بالاسم، مكشوفة الوجه والشعر وترقص على إيقاع العزف والتصفيق، وترقص لمدة ربع ساعة أو نحو ذلك ثم تعود إلى رفيقاتها من النساء دون أن يلمسها أي رجل. وبإمكان الغرباء مشاهدة الرقص فقط.

وتستخدم الدلوكة في السيرة فقط، وهو موكب العريس من منزله أو قريته إلى منزل أو قرية العروس. ويلتقى الأولاد والبنات من قرية العروس بجماعة العريس خارج قريتهم. ويشترك الأولاد والبنات من كلا الجانبين في الموكب، ويسبق السيرة حفل الجيرتق الذى يسمى عند الرباطاب «الدهبة» وفى أماكن أخرى الحنة - في بيت والد العريس. ويعد لهذا الغرض عنقريب يفرش بأفضل أغطية الأسرة. ويوضع «برش» أبيض في الوسط ليجلس عليه العريس - وتقوم امرأة بالغناء معددة فضائل العريس ووالده مع التقيد بذكر الحقائق المعروفة بالنسبة للحاضرين - ويسمى هذا النوع من الغناء «بالسومار»[١] وتأتى النساء أثناء هذا الغناء بعقد السوميت المسمى «كنار»[٢] وأسورة مكونة من بعض أنواع الخرز مخطوط على خرز الرخيمي وفقرات من عظام السمك وخرز «الكيلى» ليلبسها العريس. وتزغرد النساء ويتردد صداه في المكان ويقدم الضيوف هداياهم إلى والدى العريس. الرجال إلى والده

والنســـاء إلى والدته، ويتم وضع هذه الهـــدايا فى طبق فى الوسط. وكل رجل يود إبداء حضوره يقوم بهز السيف الموضوع بجوار الطبق، ثم يعود ليدفع هديته. ويقوم الرجل المسئول عن الطبق بإعلان المبلغ الذى دفع وتزغرد النساء. ويشكل الرجال صفوفا ويبدأون فى الرقص.

وتجهز بعد السيرة وليمة فى بيت العروس. ويتكون الطعام فى الغالب من كسرة من دقيق القمح وملاح ويكة (إدام من البامية الناشفة).

ويكتب العقد طبقًا للشريعة الإسلامية، ويقدم والد العريس المهر المتفق عليه، كما يعلن والد العروس ما سوف يقدمه لابنته، إن كان سيعطيها أى شىء. وبعد الوليمة وعقد القران، ينفض الجميع عدا الأقرباء اللصيقين للعريس فإنهم يبقون لمدة خمسة أيام أو نحو ذلك على نفقة أسرة العروس، ويطلب هؤلاء من أم العروس إجراء مراسم قطع الرحط وهو كالتالى: تأتى العروس مرتدية أفخر ثيابها، وتلبس الرحط فوق كل ثيابها، ويقوم العريس بإحصاء سبعة سيور ويجذبها بقوة إلى أن يقطعها، وتزغرد الحاضرات من النساء. ويشكل قطع الرحط الجزء العام فى العرس، ولا يحدث هذا إلا عندما تكون العروس عذراء، ولا ترقص العروس عند الرباطاب أمام الرجال؛ لأنهن لا يجدن الرقص دون الربابة.

وبعد قطع الرحط تبقى العروس حوالى أسبوع فى بيت أمها

- طبقا لرغبة الأم - ولا يوجد عند الرباطاب «حضانة» (انظر الحضانة فى عادات الزوج فى أم درمان، المترجم) ثم يعدون القيلة وهى الليلة الأولى التى يلتقى فيها العريس بعروسه العذراء، إذ تقدمها إليه بالليل إحدى كبيرات السن من قريباتها، وتمضى اليوم التالى كله معه «يقيلان» معا. ويقدم مبلغًا معينًا لهذه «القيلة» تسمى «حل الحزمية» وتبقى العروس بعد القيلة لمدة أربع وعشرين ساعة مع أمها وأربع وعشرين ساعة مع زوجها بالتناوب لمدة أربعين يوما، ولا يجب أن يسمع - على الإطلاق وتحت أى ظرف - أى من الأقرباء أو الجيران أى حديث بين العروس وزوجها خلال كل هذه المدة، كما أن على الزوج خلال هذه المدة ألا يغادر البيت أبدا سوى لقضاء الحاجة، ولا يتم ذلك خلال ساعة قبل شروق الشمس وساعة بعد غروب الشمس (الحَمَارين) ويقومون خلاله بضرب الحديد معًا لطرد الجن. ويدلك العريس «بالدلكة» صباحا ومساء. لذا فإنه عندما يخرج بعد الأربعين يوما فإن ملابسه تبدو كما لو أنها عطنت فى الدهون وبإمكان رجل قوى استخراج الدهون منها إذا عصرها، وهذا يدل على الكرم الذى غمرته به حماته، كما تقوم العروس فى الوقت ذاته بالتدخن صباحا ومساء بدخان الطلح، ويتحول لون الفتاة السوداء إلى لون فاتح، كما يتم وشم شفتها السفلى ولثتها العليا باللون الأزرق، وتعيش العروس بعد الأربعين يوما فى منزل خصص لهما وتشرع فى الحصول

على «رشوة التكلم» التى تأخذها إلى والدتها التى تصرح لها بلقاء زوجها ومحادثته. ويصبح الزوجان الجديدان مستقلين برغم أن طريقتهما في الحياة تبقى خلال العام كله تحت سيطرة أم العروس وعلى نفقة أبيها. إذ إنها لا تستطيع الانتقال مع زوجها إلى منزله حتى نهاية العام الأول على الأقل.

واجبات الرجل تجاه حماه وحماته

يجب على المرأة ألا تلتقى بزوج ابنتها أو تختلط معه فى أى تجمع اجتماعى أو فى قارب أو فى الطريق ما لم يكن ذلك من المتعذر تجنبه. كما لا يجب أن تنشر حوله القيل والقال أو تتذمر إذا مرض أو تعرض لأزمة مالية، إذ على العكس يجب عليها بذل كل جهد لمساعدته، وحث ابنتها على إرضائه ما لم يتخذ زوجة أخرى، الأمر الذى يعتبر عند الرباطاب أمرا شائنا مثل الزنى. كما يجب عليها رعاية أحفادها دون مكافأة، وعلى الرجل بدوره احترام أم زوجته لدرجة أنه إذا ما طلب منه أحد شيئا محلفا إياه باسم حماته، فعليه تحقيق الطلب برغم أنه قد يكون صعبا عليه. ويجب ألا يقابلها وجها لوجه ولا يتحدث إليها سوى عن طريق طرف ثالث أو من وراء ستار. وعليه عند السفر مع أقارب زوجته ألا يركب الدابة أمامهم بشكل غير لائق. ولا يأكل من الإناء ذاته الذى يأكل منه حماه. أو يأكل أو يشرب على مرأى أمها، ولا هى فى مرآه ما لم يكن من

المستحيل تجنبه. ولا يجلس قبل الآخرين على عنقريب فى حضور حماه.

الحمل والولادة

عندما تكون المرأة حاملاً، على زوجها توفير كل ما تشتهيه من طعام وعطور. إذ يعتقد أن هذه رغبة الطفل. وأن أى تأخير أو إخفاق فى توفيرها، سيظهر على شكل «وحمة» فى جسم الطفل بعد ولادته، وقد تمرض المرأة وربما تجهض. والقول بأنها «أجهضت بسبب كذا وكذا» هو حدث يعتبر بين الرباطاب أمرا شائنا أن تتحدث النساء عنه الواحدة للأخرى.

وعندما تبدأ آلام المخاض، يتم تعليق حبل من سقف الحجرة وتقوم المرأة بالإمساك به وتركع. وتقوم النساء بسندها من كلا الجانبين لتتمكن القابلة من الجلوس أمامها لتوليدها. وحتى فى الولادة الأولى على الأم ألا تطلق أية صرخة. وعندما يولد الطفل تولى القابلة اهتمامها الشديد لإخراج المشيمة التى تدفن داخل المنزل أو بالقرب من المنزل. وتعطى الأم فى الحال بعض السمن لتشربه، وتستريح على عنقريب. ويتم جمع جميع أغطيتها المتسخة تحت العنقريب لمدة أربعين يوما. وبعد ذلك تغسل وتنشر على شجرة خضراء. وعند قطع الحبل السرى للطفل يقدم الوالد أو الجد أو قريب هدية. وفى صباح اليوم التالى يذبح حمل يسمى «الحـرَارَة»[٣] وذلك لكى تمتلئ بطن الأم

باللحم والشحم. وتتلقى القابلة جلد ورأس وفخذ الحمل وزيوت عطرية فقط ولا تأخذ نقودا كما فى بعض المناطق. وتخصص الوليمة للنساء فقط، وبعد الولادة تتدخن الأم ويتم تغذيتها بشكل جيد لمدة ستين يوما تعود بعدها إلى واجباتها المنزلية وعلاقاتها الزوجية. وترضع الأمهات أطفالهن. ولا توجد امرأة حرة ترضع طفلا مقابل أجر. وإذا كانت الأم مريضة تقوم إحدى الجارات أو القريبات بإرضاع الطفل مع طفلها دون مقابل، وإذا استمر المرض أو أن الأم ماتت أو أصبحت حاملا قبل فطام الطفل، فإن الطفل يغذى من لبن الماعز الذى يتم غليه أو يرضع الطفل مباشرة من حلمة الماعز بعد غسلها وتبخيرها بدخان الطلح. ولا تستمر الرضاعة لأكثر من عامين ولا تقل عن عام، ولا ترضع الأم طفلها أمام الرجال. كما أنها لا ترضع طفلها وجسدها ساخن إلى أن تغسل صدرها ليبرد مهما كان صراخ الطفل.

تسمية الطفل وحلاقة رأسه

فى اليوم السابع من ولادة الطفل تذبح شاة وتقام مأدبة صغيرة لا تشبه وليمة العرس. وعادة ما يسمى الطفل على اسم شخصية بارزة سواء كان حيا أو ميتا على أمل أن يشب مثل سميه. وإذا كان الشخص الذى سمى الطفل باسمه حيا فإنه يقدم هدية لوالد الطفل. ومع ذلك فإذا كانت الأم قد حملت

بسبب نذر لفكي أو زيارة لقبره أو حجاب، فإن الطفل يسمى باسم ذلك الفكي. ولا يتم قص شعر الولادة إلا بعد تحديد الإجراءات المتعارف عليها طبقا لتقاليد الأسرة التي تؤدي إلى فكي القرية أو طبقا للمراسم المتبعة. ومع ذلك فقد يتغير الزمن ولكن لا شيء يتغير بالنسبة لهذه الواجبات، فالمرء يجد أن الناس ما زالوا يقدمون للفكي سبع حبات من الذهب تزن نصف رطل، وشلة من الخيوط القطنية. وبعض الناس يصنعون رغيفا ضخما من دقيق القمح إلى الحلاق الذي يحلق رأس الطفل، وقد يأكل الحلاق هذا الرغيف وحده أو يشرك معه آخرين كما يحب. والبعض يذبح جديا صغيرا يقسم بالتساوي بين الحاضرين، وتتلقى الأم والطفل كل منهما حصة. ولا يأخذ من يأتي متأخرا أي شيء. وتتلقى الأم جلد ورأس الجدي بالإضافة إلى حصتها وحصة الطفل.

أما «القنبور» فهو عبارة عن خصلة من الشعر تترك على رأس الطفل في أحد جوانب الرأس عادة. وقد يكون في منتصف الرأس في بعض الأحيان للأسباب التالية : يعتقد الناس أن الطفل سوف يموت نتيجة لغضب الولي إذا ما تم قص الشعر قبل أداء الواجبات التي حددها العرف أو دفع النذر. وبالتالي عندما يتم حلق رأس الطفل فإن هذه الخصلة تترك عندما لا تكون الواجبات قد تم إيفاؤها، إما بسبب أن الفكي يعيش في مكان بعيد أو أن الوالدين فقراء جدا ولم يستطيعا الإيفاء

بالنذر. وبالتالى فإن المرء يشاهد فى بعض الأحيان أطفالا وسنهم فوق العاشرة لم يتم بعد حلاقة «القنبور».

وتشخص مختلف مشاكل التسنين كنتيجة لنمو ما يسمى «بالهايفة» فى الأماكن التى يجب أن يظهر فيه ناب العين (ناب فى الفك الأعلى) ويستعدى - عند الرباطاب - فى مثل هذه الحالات «طبيب» محلى لنزع «الهايفة» بمثقاب خطافى - العملية المؤلمة جدا التى تؤدى إلى فقد الطفل لناب العين بالمرة. أما الآخرون فيقومون بكى السطح السفلى للنتوء العظمى. وفى أماكن أخرى خاصة حول أم درمان فإن الناس يقدمون أربعة قروش كنذر لكل سن إلى الشيخ خوجلى فى الخرطوم بحرى لحفظ طفلهم من هذه المتاعب.

الشلوخ

الشلوخ[٤] خطوط تقطع بالموسى على خدود الطفل / الطفلة لتمييز القبيلة التى ينتمى إليها. وهى عند الدناقلة ثلاثة خطوط رأسية، وعند الشايقية ثلاثة خطوط أفقية، الخط الأوسط مستقيم مع الفم. وعند الجعليين والرباطاب فالخطوط رأسية أيضا. والخطوط عند الرباطاب عريضة ومتقاربة عما عليه عند الجعليين. أما العبدلاب فإنهم يقطعون خطا (أو شلخا) أفقيا فى وسط الخطوط الثلاثة الرأسية كما يفعل الجعليون. وتعتبر الشلوخ فى وجه الفتيات أكثر جمالا عندما

تكون أعرض وأعمق.

وهناك شلوخ أكثر حداثة أصبحت تستخدم فى المنطقة مثل «سلم الشيخ الطيب» وهى تشبه حرف H ، أو «مطارق ودبدر»(٥) التى تشبه حرف T، و«درب الطير» الذى يتحد غالبا مع الشلوخ الأخرى. ومن بين هذه الشلوخ كانت «سلم الشيخ الطيب» قد استخدمها فى الأساس أحقاده إلا أن الطريقة السمانية تبنته وبشكل كبير الجميعاب والسروراب (والثلاثة من فروع الجعليين) أما مطارق ودبدر أو الشيخ العبيد فقط كانت فى الأصل وسما لمواشى الشيخ وامتدت فى البداية إلى سلالته ثم إلى أتباعه.

الختان

يسمى الختان(٦) فى السودان «الطهور» وعادة ما يتم الطهور للفتيان عند الرباطاب فى سن ما بين الرابعة عشرة والسادسة عشرة. وتقام بهذه المناسبة وليمة فى منزل الفتى وفقا لغنى والديه. وبشكل عام ربما فوق مواردهم المالية. إذ يتم دعوة العديد من الضيوف وعند العصر يأخذ الفتى مكانه وسط أصدقائه. ويصطف الرجال والنساء فى شبه دائرة ويجهز عنقريب، ويأتى «الطهار» ومعه موسى ويقوم بإجراء العملية.

ويتوقع – أثناء هذه العملية – أن يرفع الفتى رأسه عاليا عندما يقول له رفقاؤه «أبشر» بشكل متكرر المرة تلو الأخرى،

ويجب أن يرد عليهم «أبشروا» أما إذا خفض رأسه أو لم يرد أو شحب لونه أو انكمش من الألم فإنه يعد جبانا، ويصيب نفسه وأسرته بالعار. ويقوم الصبى وهو يحمل فى يده اليمنى رمحا أو سيفا ويذهب أولا إلى صف النساء ويهز السلاح وهو يبتسم كما لو أن لا شىء قد حدث. أو كما لو أنه أكثر سعادة من المعتاد، وترد النساء بالزغاريد. ثم يذهب بعد ذلك إلى الرجال وهو يختال ويسير كما تسير الأوزة. وبعد أن أثبت شجاعته وتلقى الاستحسان، يجلس على عنقريب وبجواره وزيره الذى يمسك بسيف. ويصطف الرجال فى صفين متقابلين كما يحدث فى الأفراح، وترقص والدة الفتى دون توقف فى وسطهم.

ويبدأ فى اليوم الثالث معالجة الجرح بفتحه وغسله بماء دافئ لتنظيفه تمامًا من أى أوساخ أو صديد. ثم يحرقون بعض سعف النخيل ويسحقونه حتى يصبح ناعمًا جدًا ويرشونه فوق قطعة قماش يتم ربطها على الجرح ثم، يقومون ببل الجرح بالماء الدافئ ويلفونه مرة أخرى بقطعة قماش بها الرماد ذاته، ويقومون بشكه بشوكة. ويشتعل الجرح الآنى كما لو أنه قد وضع فوقه جمرًا مشتعلاً. ويراقب زملاؤه تعابيره ليروا قوة احتماله. وإذا ما نبا منه أى شىء يعبر عن الألم فسوف يسخرون منه. ويتم تضميد الجرح يوميا بهذه الطريقة لمدة خمسة عشر يوما إلى أن يلتئم الجرح(٧).

وتقوم أم الطفل بتغذيته بعناية وتدلكه بالدهن صباحا ومساء. وغير مسموح له بالخروج فيما عدا قبل شروق الشمس مباشرة أو بعد غروبها مباشرة (الحمارين) وفي بعض الحالات لا يسمح له بالكلام. وعادة ما يتم ختان البنات دون وليمة. كما أنهن لا ينبسن ببنت شفة عند آلام العملية[٨].

الوفاة

تقدم النذور إلى الميت صباح اليوم التالى للوفاة أو على الأقل خلال يومين أو ثلاثة، إذ يعتقدون أن هذه النذور تزيل التراب من فم الشخص المدفون. ثم يقيمون «الفراش» (استقبال العزاء) لمدة ثلاثة أيام، بعدها يذهب الغرباء ولا يبقى سوى الأقارب الذين ينتظرون قدوم أى شخص قد يأتى من مكان بعيد للعزاء. كما يعد عاراً بالنسبة للأرملة أن تبكى أو أن تبدى حزنها على زوجها المتوفى قبل النساء الأخريات. إذ قد تعبر بذلك عن عدم ثقتها فى الوصى عليها أو حبها المفرط لزوجها، والرباطاب مثلهم مثل العرب الآخرين فى السودان يقدمون النذور إلى الميت فى الخميس الأخير من شهر رمضان. وتتكون تلك النذور من اللحم والتمر يقدمها الأحياء إلى أرواح الميتين. ويأكل هذه النذور ظهر الخميس الأطفال الذين يطوفون من منزل لآخر لجمع التمر وأكل الطعام، وجزئيا يأكله الرجال فى المساء عند فطور رمضان. ويتخيل الناس أن هذا الطعام يصل

إلى الميتين الذين يفترض أنهم يجتمعون حوله ويأكلونه بسعادة وسرور وبالتالى فإن المتوفى الذى لم يقدم أحياؤه الطعام يبقى حزينا بين الأموات تلك الليلة ويلوم أقرباءه على بخلهم. وهم يسمون هذه الوليمة «عشا الميتين».

هوامش وتعليقات

١ - السومار : نوع من شعر المدح، حيث يمدح أحد أقرباء العريس قريبه. وهو عادة قديمة تقام يوم الجيرتق، حيث يفاخر المغنى أو المغنية عادة بأخوال العريس وآبائه . ويبدأ السومار في منطقة الرباطاب بألفاظ يبدو أنها نوبية تقول : سمبوب بيا بيا بيه .

٢ - السوميت : عبارة عن خرزة أنبوبية طويلة من الزجاج بخطوط بنية وسوداء وبيضاء أما «خرز الرخيمي» فهو من الصدف الأبيض، «والكيلي» عبارة عن خرز أسود مصنوع من الخشب يشبه البندقة الصغيرة، إن مراسم استخدام العقود والأسورة في هذه البلاد قديم جدا كما يشاهد على النصب التذكارية للمصريين القدماء، وفي الأشياء التي وجدت في المقابر القديمة .

٣- الحرارة : كرامة النفساء .

٤- الشلوخ : كان نوعا من أنواع الوشم الذى يوضح في بعض الأحيان قبيلة الشخص وتعطى عناية أكثر لشلوخ الفتيات على اعتقاد أن جمالها يعتمد على الطريقة التي يتم بها القطع ومدى عرضها وعمقها (عن أشكال الشلوخ انظر الشكل رقم ٧) .

يقول د. يوسف فضل حسن (الشلوخ أصلها ووظيفتها في سودان وادى النيل الأوسط دار جامعة الخرطوم للنشر الطبعة الثانية ١٩٨٩) : إن السودانيين يستخدمون كلمة شلوخ للدلالة على الخطوط المرسومة على الخدود من أثر الفصد بالموسى، كما أن عادة الشلوخ منتشرة بين النوبيين الذين ظلوا يسكنون على شاطئ النيل منذ فجر التاريخ وأن هذه العادة كانت منتشرة بينهم قبل أن تختلط بهم القبائل العربية عند هجرتها إلى السودان والتى بلغت ذروتها في القرنين الثالث عشر والرابع عشر الميلاديين كما أن الشلوخ منتشرة بين المجموعات العربية والنوبية المستعربة التي تقطن شاطئ النيل- أى المجموعات الجعلية والشايقية - وهذه المجموعات تدعى أن الشلوخ عادة عربية وسمة تميز العرب عن سواهم من الشعوب الوطنية الأخرى .

ويقول يوسف فضل أيضا : «لم يثبت أن الشلوخ كانت واحدة من التقاليد التي نقلها العرب في نطاق ثقافتهم للأقاليم التي انتشروا فيها في آسيا وإفريقيا بل لا نجد له أثرا في المناطق التي استعربت وتمثلت بالثقافة العربية تمثلا كاملا على أثر الهجرة العربية

سوى في السودان .

وقد عرفت الشلوخ في الجزء الشمالي من السودان خاصة في بلاد النوبة منذ العهد المروى (٧٥٠ق.م - ٣٥٠م) على أقل تقدير ، وكانت تلك الشلوخ تمثل أنماطًا مختلفة بعضها على هيئة خطوط أفقية مستقيمة وأخرى مائلة وبعضها هلالية الشكل».

ويضيف يوسف فضل أن عادة الشلوخ كانت منتشرة بين السودانيين خاصة في المنطقة النيلية الواقعة شمال الخرطوم منذ أمد بعيد .

ويخلص دكتور يوسف فضل إلى أن عادة الشلوخ عادة نوبية قديمة تبناها العرب لأسباب عديدة، كما يبدو أن قوة فاعلية الثقافة النوبية لدى السكان الأصليين وشدة تمسكهم بها قد فرضت نفسها على العرب الوافدين في أكثر من منظر ، ولعل خير مثال لذلك هو تمسك العرب والمرأة العربية أو المستعربة بعملية المشاط أو طريقة تصفيف الشعر التي كانت سائدة في تلك المنطقة منذ عهود سحيقة ، مما يؤكد عراقة الشلوخ في سودان وادى النيل الأوسط وشدة تمسك المرأة بها .

إن الشلوخ قديمة في المنطقة التي شهدت ازدهار حضارتي نبتة ومروى قد اقتبسها المهاجرون العرب عند اختلاطهم بالنوبيين وأكسبوها مظهراً قبليا يميز مجموعة عن أخرى .

٥ - المطارق : (جمع مطرق) وهي العصى الخفيفة المطارق هي الشلوخ العمودة، يقولون مشلخ مطارق أى ذو شلوخ عمودة .

٦- الختان : «الختان بتر جزئي أو كلي للقلفة أى الغشاء الجلدى الذى يغطي رأس القضيب لدى الرجل ، وقد استعمل الختان على صعيد جماعي لدى العديد من الشعوب لأسباب لايمكن الجزم بها ، قد تكون صحية كما يقول هيرودت أو شبيهة بالوشم لدى بعض الشعوب إيذانا ببلوغ العمر الذى يأذن له بالمشاركة فى الاحتفالات القبلية .

وأول من استخدم الختان في المنطقة السامية هم العبرانيون ويرجع ذلك بالتحديد إلى ما جاء في كتاب العهد القديم إلى عهد إبراهيم «وقال الله لإبراهيم وأما أنت فتحفظ عهدى أنت ونسلك من بعدك في أجيالهم هذا هو عهدى الذى تحفظونه بيني وبينكم

وبين نسلك من بعدك يختن منكم كل ذكر فتختنون في لحم غرلتكم فيكون علامة عهدى بيني وبينكم ابن ثمانية أيام يختن منكم كل ذكر في أجيالكم .« وقد يكون إبراهيم جاء بهذا التقليد من مصر إذ كان الختان معمولا به في مصر منذ العصور القديمة أو منذ الأف الرابع قبل الميلاد أسوة بالشعوب الإفريقية عموما (انظر معجم الحضارات السامية) .

٧- وفي مناطق أخرى يقوم «الطهار» بإدخال قطعة نظيفة من اللب الداخلي لساق الذرة في الغلفة لدفع الحشفة إلى الخلف ثم يمسك القلفة بإحكام ويقطعها بالموسى بضربة واحدة ويعالج الجرح بالرماد المتخلف من روث بعض الماشية أو رماد القرض أو السناج أو رماد سعف الدوم «الخنقوق» كما عند الرباطاب ، ويتم العلاج بالطريقة ذاتها باستخدام الماء الدافئ يوميا إلى أن يبرأ الجرح .

٨- ختان الإناث : هناك نوعان من ختان الإناث :

(أ) ختان السنة : يتكون من قطع البظر وترك الشفرين إلخ سليما وهذه الطريقة أقل ممارسة في السودان عما هي عليه في مصر .

(ب) أما في السودان فكل الناس تقريبا تمارس الطهارة الفرعونية التي يتم فيها قطع البظر وكلا الشفرين ويتم في بعض الأحيان استخدام ورقة رقيقة يضاف إليها صفار البيض لتغطية الجرح ثم يربط الفخذان والركبتان والقدمان معا ، ولا يسمح للفتاة بالحركة لمدة أربعين يوما وتحاول المرأة التي أجرت العملية ترك ثقب صغير جدا للتبول .

أما السبب في لماذا يحب الناس هذا النوع من الختان : هو أنهم يعتقدون أنه سوف يحمي بناتهم من الاغتصاب ، كما أن طريقة إغلاق المهبل هذه كانت تستخدم أيضا بعد الولادة ولكن بطريقة مختلفة إذ يتم تخشين الحافتين بالموسى وتوضع ثلاث أو أربع سعفات من سعف الدوم على كل جانب من جانبي المهبل وتربط في نهايتها ، ثم يتم ربط الفخذين والقدمين معا ولا تتحرك المريضة لمدة أربعين يوما لتمكين حافتي الجرح من الالتئام معا .

عادات الزواج فى شمال السودان

استقيت معلوماتي من أربعة مصادر. واحد من كل مجموعة تم ذكرها. وتم ربط روايتهم بالإضافات بالرجوع إلى العديد من الشهادات الأخرى، ولكن لا أزعم أن هذه الروايات كاملة أو أن الاختلافات في الممارسة التي لم تذكر غير موجودة في كل المجموعات محل الدراسة. وحين وجدت العادات ذاتها في أكثر من مجموعة قمت بوصفها بشكل كامل في حالة واحدة فقط منعا للتكرار.

واللغة العربية هي لغة كل رواتي، وكلهم - بالطبع - مسلمون ويدعون الأصل العربي، ولكنهم اتفقوا في الاعتراف بالصفة غير العربية والطراز العتيق لعاداتهم الخاصة بالزواج. وأن هذه العادات - كما يقولون - هي عادات اختارها الناس لأنفسهم، وليس هناك عقاب ديني. وأن الأكثر ذكاء من بينهم يوافق أيضا في الاعتقاد بأنها عادات تبناها أسلافهم بعد قدومهم إلى هذه البلاد. إن هذه العادات في حد ذاتها هي أجزاء بقيت من ماض قد تم نسيانه.

ا - عادات الزواج في منطقة دنقلا

نسبة لأن موطن الدناقلة شحيح في موارد الرزق لذا فإن

العديد منهم قد أجبر على النظر لما وراء موطنه عن أسباب الرزق. القليل منهم يذهب إلى مصر سنويًا بحثًا عن الخدمة المنزلية، ولكن العديد منهم يتحول نحو الجنوب كعمال يومية أو تجار أو مستوطنين. وكان هذا هو الوضع منذ زمان بعيد.

وفى القرن الثامن عشر وجد الرحالة براون مستوطنة من التجار من دنقلا قد تأسست في دارفور. كما أن معظم سكان المدن في كردفان - خاصة في الأبيض وبارا من أصول دنقلاوية. وعليهم فى موطنهم النهرى مواجهة تنافس أكثر من الجعليين والجعافرة والآخرين، ولكن هنا أيضًا يشكلون قسمًا كبيرًا ومزدهرًا من السكان - خاصة فى أم درمان والكاملين والقطينة. إن العديد من المستوطنين الدناقلة في هذه المدن فقدوا الاهتمام المادى البسيط الذى كانوا فى وقت ما يملكونه فى أوطانهم القديمة، ونسوا لغتهم النوبية، ولكنهم مازالوا يحافظون على أنفسهم كعنصر مميز فى السكان، ويدعون أنهم مازالوا يتبعون العادات التى جلبها أسلافهم من دنقلا.

وربما يلقى التاريخ الأسرى للراوى الرئيس الضوء على بعض الصفات المميزة للحياة الزوجية فى هذه البلاد. لقد كان والده بديرى من منصور كوتي، وهو ينحدر من شيوخ متعلمين. ومثل العديد من جنسه عرف أبوه كيف يطيع الله وحب المال، وحصل على ثروة طائلة عن طريق التجارة، وله أربع زوجات، إحداهن فى موطنه منصوركوتي وواحدة فى أم درمان وواحدة

فى شيخ شريف - قرية بالقرب من دنقلا - وبالطبع فإن زوجته الأولى تنتمى إلى أسرته. أما الثلاثة الأخريات فيعشن مع أو بالقرب من أهلهن فى الأماكن التى يقيم فيها زوجهن من أجل التجارة من وقت لآخر. وبالطبع فإن الأطفال من هذه الزوجات يشبون وسط أقارب أمهاتهم. والراوى هو ابن الزوجة التى من شيخ شريف، وهو يعيش فى شيخ شريف ويملك قطعة أرض ونخيل ومتزوج من إحدى قريبات والدته. وحاله يشبه حال عدد من الأسر الجيدة فى كل هذه المنطقة. ويظهر مدى سهولة ظهور حالات ما تسمى بزواج «القرابة من ناحية الأم».

١ - تحديد يوم العرس :

بعد أن يتم تجهيز لوازم العرس والاتفاق على «الترتيبات» فإن أول شىء هو اختيار اليوم الميمون للعرس. والأمر هنا ليس كما فى بعض البلاد، موسم خاص من العام يتم فيه الاحتفال بالزيجات، ولكن هناك فترات عديدة موزعة على طول السنة تعتبر منحوسة[1] وهناك أيام محددة فى الأسبوع وشهور محددة فى التقويم الهجرى، يتم تجنبها - بشكل خاص الشهور الواقعة بين العيدين - ولكن المحافظين يهتمون أكثر بحركات القمر الذى تقسم فيه السنة الشمسية إلى ثمانية وعشرين منزلا. ولكل من هذه المنازل خاصيتها، تجلب الحظ السعيد أو العكس. ويتم وفقا للصفات التقليدية لهذه المنازل تحديد تاريخ الزواج. وللكشف عن أكثر تاريخ مناسب يكفل الازدهار على

الوالدين لذلك يتم اللجوء إلى واحد من العالمين بالتقاليد وعلم الفلك.

٢ - ليلة الحنة :

بعد أن تم اختيار اليوم السعيد، وأجريت الاستعدادات الضرورية للحفل بدرجة سخية في كل من الأسرتين، تبدأ أولى المراسم العامة وهي الحنة. ويجري الاحتفال عادة في المساء. وفي بيت العريس تقوم الأم بإحضار الحنة في آنية ويجلس العريس مع وزيره على الأرض، ولا يحضره سوى الأطفال والنساء، وتقوم امرأة تزوجت مرة واحدة فقط وولدت العديد من الأطفال بوضع الحنة على يدي وقدمي العريس. ويضع النساء والأطفال الحاضرين الحنة لأنفسهم جلبا للحظ، مع الغناء والرقص المعتاد. كما تتم في منزل العروس مراسم مشابهة.

وهناك ممارسة مختلفة في بعض المدن الأخرى. إذ هنا يقوم العريس قبل أن يتم «تحنينه» بالذهاب إلى منزل العروس حيث تقوم قريباتها بإحضار آنية الحنة، وعلى العريس وضع قطعة من الحنة في يدي العروس ويتوقع أن تبدي مقاومة وتخفي يدها وراء ظهرها. كما أن قريباتها يساعدنها لتمانع. وعندما ينجح العريس يقوم كل الباقين بزخرفة أنفسهم بالحنة. ويعود العريس إلى منزله لتقوم بتحنينه إحدى قريباته.

إن بعضا من هذه المراسم شائعة في كل أنحاء العالم

الإسلامي من مكة حتى الملايو. ولكن أفضل رواتي قال لي إنها كشعيرة عرس قد ابتدعت في السودان.

٣ - الجيرتق :

تقع مراسم الجيرتق بعد ظهر اليوم الذي يلي ليلة الحنة. والجيرتق هو كساء العريس بالملابس والحلي المناسبة لوضعه. فهو يلبس في رسغه الأيمن سوارا فضيًا وخرزة زرقاء أو خضراء تسمى الجيرتق منظومة في شلة من الحرير الأحمر بخصلة طويلة معلقة منه. وفي أصبع يده اليمنى خاتم من الفضة عليه جوهرة حمراء كبيرة، وحول رقبته ثلاث قلائد إحداها من الخرز الأسود والأبيض (سوميت) وخرزة من الذهب، والقلادة الثانية من الحرير الأحمر مع عملات ذهبية كبيرة تسمى «فرج الله» وخرزة صغيرة تسمى بندقي والثالثة سبحة.

وتجهز النساء من أهل العريس مختلف أنواع الحلي. ويتكون جزء من الأعداد في غمس الخرز في اللبن «لجلب الأيام المشرقة» ثم في زريعة الذرة «ليكون الزواج مثمرا» ولا يحضر هذه المراسم سوى النساء، وهي مراسم تقوم بها امرأة كبيرة تسمى «بخيتة» وتقوم وهي تضع القلائد والأسورة على العريس بترديد: «باسم الله بالمهلة والسعادة، وبالمال المطمور الكبير والراكوبة الظليلة» وتغني وتزغرد الحاضرات. ثم بعد ذلك يتم وضع الدهون على رأس العريس وكذلك على رأس الوزير الذي

يحضر كل هذه المراسم. كما يحدث في الوقت ذاته مراسم مماثلة في بيت العروس. وفي كلا المنزلين هناك وليمة لكل الناس ولجمع الهدايا.

٤ - ليلة الدخلة :

يجرى الاحتفال حتى هذه اللحظة في خطوط متوازية في منزل العروس ومنزل العريس. وتأتى الدخلة التى تحدث في حوالى منتصف الليل بدخول العريس منزل عروسه. ومن ذلك الوقت فصاعدا فإن أهم المراسم تكون قد انتقلت إلى منزلها. ويأتى العريس فى موكب يسمى «السيرة» مصحوبا بوزيره وأصدقائه وأهله من الجنسين، وهم يحملون الفوانيس والرتاين (الكلوبات). وعندما يصلون إلى منزل العروس يقابلهم أقرباؤها ويرحبون بهم ويدخلونهم المنزل بطريقة احتفالية. ويقول لهم والد العروس «أنتم تدخلون وأنا أخرج» أو بمعنى آخر الدار داركم. وفى الحوش ينفصل الفتيان عن الفتيات ويرحب بكلا الفريقين أصدقاء وأهل العروس. ويمضون بقية الليل في التحدث معا إلى أن يعلن - ربما عند الفجر - أن العروس مستعدة للشعيرة التالية.

٥ - قطع الرحط :

يسمى الحدث التالى بقطع الرحط. وهو أول لقاء عام بين العروس والعريس. وهو مناسبة للمرح. إذ يتم إخبار العريس

بأن العروس قادمة، ومن ثم تدخل أربعة أو خمسة أشكال كلها محجبة وترتدى اللباس ذاته. ويضحك المشاهدون على جهود العريس للتعرف على عروسه من بين هذه الأشكال. وعندما يكتشف عروسه تتقدم الوزيرة بنزع الغطاء الحريرى الأحمر (القرمصيص) الذى يغطى العروس، وتظهر الرحط ومختلف حلى الجيرتق. ثم تقوم الوزيرة بالإمساك بسبعة سيور من الرحط وتضعهم فى يدى العريس الذى يقوم بقطعها ويضرب بها العروس ثلاث مرات، ثم يلقى بالسيور بعيدا. والرحط عبارة عن تنورة من السيور الجلدية مزين كقاعدة عامة بالودع ويغطى الجسم من الخصر حتى الركبة، تلبسه الفتيات الصغيرات فى كل أنحاء السودان. إن المعنى الرمزى لقطع هذا الحزام واضح. أن العروس تتخلى عن الأشياء الطفولية.

٦ - وتشكل الأيام الأربعة أو الخمسة التالية لقطع الرحط فترة من التوقف النسبى. فالضيوف يقضون معظم الوقت فى الرقص ووسائل الترفيه الأخرى. وتبقى العروس فى مسكنها فيما عدا ساعة أو ساعتين فى اليوم ربما تقضيها جالسة ومحجبة إلى جانب العريس تراقب الرقصات. وهى فى دنقلا لا ترقص. وهناك مباراة واحدة يتم أداؤها باستمرار تقريبا طوال فترة العرس وهى التى تسمى «القيد» وتلعبها الفتيات على حساب الرجال. إذ تتحرك الفتيات من مكان لآخر ومعهن القلائد والأسورة والحجول، ويحاولن إدخال واحدة منها فى

رأس أو قدم أى رجل يرونه. وعلى الرجل الذى يتم إلقاء القبض عليه بهذه الطريقة عتق نفسه بدفع الغرامة التى ربما تكون نقدا أو عينا. وقد يقوم رجل غنى فى الغالب فى هذه الحالة بتوفير كل الطعام الضرورى ليوم ترفيهى فى منزل العروس.

وأصبحت هذه اللعبة أكثر تنظيما فى المدن. وقصرت بيوم خاص تتم فيه دعوة الرجال من كل الملل والنحل «من الفكى للمراسى»، وتقام حفلة تسلية لكل مجموعة ويجلس الضيوف بعد العشاء خارج مسكن العريس. وينتظرون قدوم النساء، اللواتى يأتين فى موكب تحمل إحداهن آنية مملوءة بالقلائد والسورة والحجول وآنية أخرى مملوءة بالماء، بينما تحمل الأخريات الشموع والعطور. وتقوم فتاة بأخذ القلائد والحلى الأخرى من الآنية ووضعها حول رقاب وأيدى الرجال، ومن ثم عليهم دفع غرامة فى الآنية التى بها الماء، قبل أن تخلع عنهم قيدهم. وعلى العريس أن يدفع أولا. ولا تشترك العروس فى هذه اللعبة. ويتم تقسيم المبلغ بين الفتيات، ومن ثم فقد يعتبر نوعا من الشكر المقدم لرقصاتهن.

٧ - الحضانة :

وهى تسمى «البدنة» فى منطقة وسط السودان، وهى تتكرر مرتين فى اليوم. فى الصباح قبل غروب الشمس. عندما يظهر ضوء الفجر فى السماء تحضر الوزيرة وصديقات العروس، ويتم إجلاسها على برش بجوار العريس، ويغطى العروسان

بالقرمصيص. ويجب ألا يتحرك العروسان ولا يتحدث أحدهما مع الآخر، ويجب أن يجلسا في اتصال صامت حتى شروق الشمس. أما أصدقاؤهم فهم يتحركون ويتحدثون كما يشاءون. وتتكرر الشعيرة ذاتها عند غروب الشمس، ويبقيان حتى ظهور أول نجم. ويعرف شروق وغروب الشمس «بالحمارين» ويعتقد الناس أن الأرواح تكون نشطة بشكل خاص في هذه الفترات.

٨ - زيارة النهر :

تنتهي فترة الراحة هذه عصر اليوم السادس بموكب أو سيرة إلى النهر يقوم بها العريس ووزيره والأصدقاء. في الطريق يبدى أصدقاء العريس شجاعتهم وذلك بتعرية كل منهم لظهر الآخر لضرب السوط «البطان». وعند النهر يرش الأصدقاء الماء على العريس ووزيره، ويقوم الوزير بالرد. ثم يقومون بقطع جريد النخل لتزيين المنزل. ويعودون إلى المنزل بالطريق ذاته الذى قدموا منه. وعند وصولهم إلى المنزل يجدون أنه قد تم ذبح خروف أثناء غيابهم، وعليهم تخطى بركة الدماء الموجودة أمام المدخل والقفز فوق الدماء لدخول المنزل.

٩ - كب العيش :

وعند دخولهم المنزل يجدون أن العروس تجلس في انتظارهم، ويجلس العريس في مواجهتها. وتعطى لهم آنية بها ذرة مخلوطة بالسكر والتمر والتوابل، ويقوم العريس بملء

راحتيه من الخليط وتقوم العروس بوضع يديها تحت يديه لتلقى الذرة عندما يفتح يديه. وعندما تأخذ العروس الذرة بهذه الطريقة يصبح دور العريس في وضع يده تحت يديها لتلقى الذرة، وهكذا إلى أن يتم تبادل الذرة سبع مرات. عندها يلقى العريس آخر حفنة في وجه العروس. وخلال هذه العملية يكرر العريس: «قنعتك بالسُترة والقُدرة» ولا يحضر هذا العرض سوى النساء والأطفال.

١٠ - ليلة القيلة :

الليلة التى تتلو المشهد الأخير الذى وصفناه هى بداية الليالى السبعة. وهى الليلة الأولى التى يترك فيها العروس والعريس معا. ومن ثم يفترض أنه قد تمت الدخلة. ولكن نادرا ما يحدث هذا. وتقوم الوزيرة - فى هذه الحالة - بإدخال العروس إلى غرفة العريس وقد تم تغطيتها بشكل شديد وحول وسطها حبل معقود بإحكام فوق ملابسها. وهذا الحبل متصل بالسراويل التحتية. وتنسحب الفتيات واحدة بعد الأخرى إلى أن تصبح العروس وحدها. ويقوم العريس بإعطائها هدية (لفتح الخشم «الفم») (أى لتتكلم) وبرغم أن العروس تقبل الهدية، فلا يفترض أن تتكلم على الأقل حتى الليلة التالية. وعلى العريس بعد ذلك فك الحبل المربوط على وسطها، وعليها محاولة منعه. وقد يستغرق الأمر الليل بطوله. وإذا لم يستطع فك الحبل بكل الطرق يقوم بقطعه. وتسمع الفتيات

كل ما يدور فى الغرفة طوال الوقت. وإذا ما أذعنت أو خضعت العروس بشكل سهل إلى العريس فإنها توبخ بطريقة ساخرة من قبل الفتيات فى القرية. وتعود مرة أخرى فى الليلة التالية، وربما فى هذه المرة تقبل رفع حجابها والتحدث مع العريس. وهكذا فقد تنقضى الليالى الأربعين فى الحديث المتبادل. وتعتمد الدخلة بشكل كبير على مدى القسوة التى تمت بها عملية الطهارة. فإذا كانت الطهارة قد تمت بشكل قاس، فإن الدخلة لا تتم بالمرة خلال الأربعين يوما. ومن ثم يتطلب الأمر تدخل القابلة.

١١ - وتنتهى فى اليوم الأربعين مراسم الزواج، ويخلع العريس والعروس الجيرتق الذى كانا يلبسانه حتى ذلك الوقت. وفى دنقلا كما فى العديد من مناطق البلاد، تبقى العروس لمدة عام على الأقل فى منزل أمها. وفى بعض الأحيان لمدة أطول. ويتم بناء حجرة بفناء صغير للزوجين الجديدين داخل المجمع السكنى للأسرة. ويصبح العريس الآن «سيد بيت»، ويستمر فى احترام والده، وليست له أية سيطرة على الاقتصاد المنزلى للمنزل الجديد الذى يبقى بشكل عادى فى يد أم العروس. وعلى الأم توفير إمدادات كل أنواع الحبوب خلال العام الأول من الحياة الزوجية.

١٢ - وإذا كان المنزل - كما هو الحال فى الغالب - حديثا وبنى خصيصًا للعروس والعريس، ويجب اختيار يوم ميمون

لبداية البناء. ويتم ذبح خروف، تطبع كفوف من دمه على الحوائط . ولكن هذا ليس من شعائر الزواج. وهى تشبه ما يفعله الرجل العاقل عندما يرتدى ثوبا جديدا (كأن يرشه بالماء مثلا).

٢ - عادات الزواج في إحدى قرى الجعليين

١ - تحديد التاريخ :

أهم شيء هو تحديد الموعد الذى يتم فيه عقد القران وهو الجزء الأهم فى مراسم الزواج. ويجب أن يكون كتب الكتاب ليس فى شهر سعيد ويوم ميمون فحسب، بل وفي ساعة سعيدة أيضا . وإذا تم اتخاذ هذه الاحتياطات فإن العقد قد يكتب قبل سنوات من الدخلة - وربما يؤجل حتى لما بعد دخول العريس منزل العروس. وبعد أن تكون الارتباطات الرسمية قد اتخذت، سواء تم كتابة العقد أم لا ، فإن العريس يتجنب العروس ووالدتها.

٢ - الجيرتق :

يتم هذا في منزل العريس قبل وليمة العرس. ويرسلون في الصباح الباكر لحلاق ذى يد مبروكة - رجل يكون أبويه ما زالا إحياء، أو له العديد من الذرية أو من ذوى اليسار، ليقوم بحلق رأس العريس ووزيره، ولا يترك سوى القليل من الشعر عند قمة الرأس (هفهفافة) ويأخذ أجره. ويقوم العريس عند الظهر وهو يحمل سوته بالجلوس مع وزيره على عنقريب مغطى ببرش.

ويستثنى الرجال من هذه المراسم، وتقوم النساء باختيار امرأة ذات يد مبروكة بتزيين العريس. أما الحلى فهى ذات الحلى المستخدمة في دنقلا ماعدا ريشة النعام وفقرة من فقرات السمك التى يتم ربطها فى الحرير. وكذلك قطعة من الذهب تلبس حول الرقبة. والرجل الذى لا تمتلك أسرته الخرزة الزرقاء يقوم باستعارة خرزة زرقاء من إحدى الأسر. وتوضع «الضريرة»[٢] فى ثلاث طبقات : الأولى من دهن «مكركر» والثانية من «المحلب» والثالثة من «خشب الصندل المطحون». ويتم كساء الرأس بهذه العجينة على شكل طاقية. وقد تستغرق هذه المراسم ثلاث أو أربع ساعات، وتقوم الفتيات خلالها بالغناء ويمتدحن العريس وأسرته بأغنية تسمى «البنينة»[٣] وهى تشبه السومار لدى الرباطاب. وتجرى مراسم مشابهة فى منزل العروس.

٣ - وتقام فى اليوم التالى فى بيت العريس وليمة تسمى «الكفاية» وتتلوها ما يسمى «المعاونة» والمساعدة يتم فيها تكريم وفادة النساء والرجال بشكل منفصل ولا تظهر العروس.

٤ - السيرة :

يذهب العريس فى المساء فى موكب إلى منزل العروس مصحوبا بأهله وضيوفه - بما فيهم والديه - وتتوقف السيرة بعد كل بضع خطوات للرقص المعتاد والتصفيق والغناء.

ويقابلهم عند مدخل منزل العروس، صديقاتها اللواتي يسخرن من العريس على أساس أنه لا يستحق العروس كما يفاخرن بالعروس. وعند المدخل تحدث مناوشات بين شباب كلا الفريقين. ويجب أن يدفع أتباع العريس مبلغا من المال إذ لم يكونوا أقوياء بما فيه الكفاية لشق طريقهم إلى داخل المنزل. وربما يتم ذلك عند منتصف الليل، ويتم بعد ذلك إكرام الضيوف. وإذ لم يكون العقد قد تم فإنه يتم الآن.

٥ - قطع الرحط :

يتم هذا في اليوم التالي، ولا يختلف عن العادة الدنقلاوية.

٦ - وفي الليلة التالية تقوم الوزيرة بأخذ العروس عند منتصف الليل لرؤية العريس، وتبقى معه حوالي ساعة، وعليها خلال هذه الساعة أن تصيح بصوت مميز يسمى «الغنج» يتم تدريبها عليه تماما كما يتم تدريبها على الرقص. ويسمى هذا اللقاء بالدخلة.

٧ - القيلة :

وتمضي بعد الدخلة ثلاثة أيام هادئة. ولا يوجد في هذه القرية قيد أو حضانة (رغم وجودها في بقية القرى الجعلية) ولا زيارة للنهر أو «كب العيش». وفي اليوم السابع يذبح العريس خروفا يسمى «حلالة» تقوم بأكله الفتيات فقط. وتأتي العروس وصديقاتها إلى حجرة العريس، وتقوم العروس بأداء رقصة خاصة أمام العريس. وتعود العروس إلى العريس مرة

أخرى في وقت متأخر من الليل.

٨ - وتمضى العروس الأربعين يوما التالية بلياليها ما بين سكن العريس ومسكن أمها. وعليها ألا تتكلم أبدا إلى عريسها حتى ولو تلقت بالفعل الهدية المعتادة. وعند تمام الأربعين يوما يقوم الاثنان بغسل ملابسهما ويخلعان الجيرتق، وتبقى العروس لمدة عام على الأقل في ذات المكان.

٣ - عادات الزواج عند المحس

هناك قسمان من المحس في السودان: محس الشمال وهم الذين يقطنون في القسم الجنوبي من منطقة حلفا. وهناك أيضاً أعداد كبيرة من المحس الذين استوطنوا من قبل قرنين أو ثلاثة على الأقل في القرى الواقعة حول الخرطوم(٤) وما زال محس الشمال يتحدثون النوبية أما محس الجنوب (في القرى الواقعة حول الخرطوم) فيتحدثون العربية. ويذهب محس الشمال إلى مصر للعمل هناك، أما محس الجنوب فهم مزارعون أو رجال دين. وتختلف عادات الزواج في القسمين بشكل كبير جداً. ففي الشمال لم يبق من حلى الجيرتق سوى عقد واحد مع السوميت وحبات الذهب. وتلبس كلها قبل أيام من بداية العرس، ولا يوجد قطع للرحط. ومن جهة أخرى ما زال قائما كب العيش. كما أن التأثير المصرى هو المسئول عن معظم التحولات التى حدثت فى المنطقة. أما فى الجنوب فإن العادات تختلف بعض الشيء عن تلك التى قمنا بوصفها، وكلها تنتمى

بشكل واضح إلى ذات الطبقة. إن الاختلاف اللافت للنظر بشكل واضح هو فى توقيت الجيرتق الذى يتم فى اليوم السابع بدلاً من إتمامه قبل السيرة إلى منزل العروس، الاختلاف الذى لاحظناه وسط الشايقية أيضا وجزئيا فى كردفان.

أما عن أعراس محس الجنوب فقد زودنى به مواطن من برى:

١ - تبدأ الاحتفالات فى منزل العريس بولائم تستمر لمدة ثلاث ليال متتالية. ويتكون الطعام من خبز الذرة واللبن والسكر يسمى «بوسيب»(٥) ثم يتم الاحتفال بليلة الحنة.

٢ - الدخلة:

يتم فى الليلة التالية تثبيت حزمة من القش أمام منزل العريس. وتبدأ السيرة بغناء «العديل والزين» ويتم استقبالهم فى بيت العروس بالزغاريد. وغالبا ما يتم قطع الرحط فى الحال. وعلى العريس دفع رسم دخول قبل أن يرى العروس التى ما تزال تقيم فى منزل والدتها، وترقص أمامه وتخاطبه الفتيات «بخيت عبد البنات» ويطلبن منه إطاعة أوامرهن. ويقول إلى أى درجة هو يحب العروس. ثم يتم قطع الرحط بالطريقة المعتادة.

٣ - وتبدأ فى اليوم التالى مراسم «القيد» بالشكل الذى تم وصفه فيما سبق. وبعد الظهر يذهب العريس وأصدقاؤه فى سيرة إلى النهر يرقصون ويغنون ويضرب بعضهم البعض بالسوط. وفى النهر يقوم العريس بغسل يديه وقدميه، ويقوم

وزيره بقطع بعض جريد النخل للمنزل الجديد، ثم يزورون أم العريس التي يتناولون عندها بعض المرطبات ويعودون إلى بيت العروس.

٤ - ويتم في اليوم التالي سيرة مماثلة إلى النهر وإلى منزل والدة العريس، ويجد عند عودته قدرا به «بليلة» بجوار الباب، ويقوم العريس بكسره بسيفه ويكمل الأولاد الذين معه تهشيم ما تبقى من كسر القدر. وبعد تناول الطعام تحضر العروس إلى مسكن العريس (حدث اللقاء السابق في منزل أمها. انظر الفقرة ٢) وتبدأ مراسم «القيدحرن»[٦] إذ تقود امرأة كبيرة في السن العروس إلى باب منزل والدتها وتقول لها: «نطلب منكي باسم الشيخ خوجلي الخطو إلى الأمام» وعندما تسمع اسم الشيخ خوجلي تتقدم خطوتين. ثم يذكر اسم شيخ محسي آخر فتتقدم خطوتين، وهكذا إلى أن تقترب من المنزل الذي ينتظر فيه العريس. ثم يذكر اسم العريس مكان اسم شيخ آخر، وعندها تتقهقر العروس في الحال خطوتين إلى الخلف، وعندما تصل في النهاية إلى المنزل تجلس على عنقريب وتعطى مرآة ويطلب منها النظر إلى نفسها وخلال قيامها بذلك ينظر العريس أيضا في مرآتها وتقوم في الحال بتغطية وجهها مرة أخرى.

٥ - ثم هناك فترة التوقف التي تستمر في هذه الحالة أربعة أيام، وفي اليوم السابع بعد الدخلة تأتي النساء من أهل العريس

بالحلى الخاصة التى تم غمسها فى اللبن والزريعة كما هو الحال عند الدناقلة. وتحدث مراسم الجيرتق فى حوالى منتصف النهار. ويغادر فى المساء كل الضيوف ماعدا النساء كبار السن اللواتى تستضيفهن العروس. ويطلبن من أم العروس إرسالها إلى العريس وتقودها الوزيرة من أجل حل «الجزامية».

٦ - وبعد خمسة عشر يوما من ليلة الدخلة يقوم العريس بتوزيع كمية كبيرة من اللحوم، والخضروات، والفواكه، والشموع، والسكر، والشاى على الفتيات من كلا الطرفين ويسمى هذا «بالبشاشة».

٧ - وفى الأسبوع التالى ترسل أم العروس هدية مكونة من اللحم والأرز وهلم جرا إلى أم العريس التى يتوقع أن تقوم بمنح الفتيات اللواتى جلبن لها الهدية مكافأة سخية، جنيهين أو ثلاثة مثلا.

٨ - ويتم الحفاظ على ذات القواعد خلال العام الأول للزواج كما هو الحال عند الدناقلة.

٤ - عادات الزواج عند الشايقية

الشايقية شعب مرح، وتعبر عاداتهم بشكل طبيعى عن مزاجهم. ويجد المرء بينهم بعض العناصر التى تظهر فى الأعراس لدى الأقوام الأخرى، ولكن الفكرة الأساسية مختلفة تماما، وهناك تنوعات بسيطة. فالفتيات الصغيرات فى هذه المنطقة يتجولن بحرية كاملة، وبالتالى فإن الأعراس يعدها

الشباب أنفسهم ويسبقها التودد المألوف، ولا مجال هنا لأى تجنب بين الخطوبة والزواج أو أى فترة سكون فى جانب العروس خلال أو بعد الزواج.

١ - فهنا - كما فى أى مكان آخر - يستدعى الفكى لإبداء النصح بشأن تحديد الموعد. وهنا أيضا ولائم قبل أيام من العرس تسمى «البوش»[٧] (كلمة سمعتها أيضا فى جزيرة توتى فى الخرطوم وفى كردفان) فى منزل العريس حيث يقدم أصدقاؤه الهدايا المالية، ويتولى كاتب تدوين المبلغ حيث يتم رده فيما بعد فى مناسبة مماثلة.

٢ - اليوم الكبير :

وهو اليوم الذى يدخل فيه العريس منزل عروسه. وتبدأ السيرة عند هبوط الليل بزيارة لضريح أحد الشيوخ المحليين، وبتقديم حفنة من التمر أو القليل من العملات المعدنية الصغيرة. وعندما تصل السيرة إلى منزل العروس، يدور العريس راكبا حول منزل العروس سبع مرات. وإذا سدت صديقات العروس المدخل، عليه أن يدفع لهن هدية قبل أن يسمح له بالدخول فى المكان الذى تم بناؤه أو على الأقل خصص لإقامته.

وتأتى العروس الآن فى زينتها لقطع الرحط، وهى ترتدى الملابس التى قدمها لها عريسها. وتنورة ملفوفة فوق الرحط، لذا فإن العريس يجد صعوبة إلى حد ما فى الإمساك بالرحط،

ويحتاج بشكل عام لمساعدة وزيره. وعندما يقطع فى النهاية الرحط، يضرب به العروس من أجل الحظ السعيد، وترش صديقتها الماء عليه وعلى مرافقيه، ثم ينطفئ النور فجأة، ويزداد بالطبع فى الظلام الهزل واللهو.

٣ - يذهب العريس وأصدقاؤه إلى النهر أو إلى الصحراء لجمع بعض النباتات الخضراء سواء كان عشبا أو أوراق «السلَم» وعند عودتهم يجدون «شملة»(٨) قد نشرت أمام منزله، ويركع هو وأصدقاؤه فى صف إلى جانب وتركع الفتيات فى صف مواجه لهم. وتقدم إحدى الفتيات سبع تمرات وتطلب من العريس أكلها ويعيد لها النوى ثم تسأله «أنت تيس ولا عنيز» وسرد «أنا تور (أو عجل) وقروني قوية» ثم تحضر العروس مرة أخرى وتتقدم وهى ترقص لملاقاة العريس الذى يصب كل الأوراق الخضراء التى جمعها فوق رأسها ويضمها من خصرها ويقوم بشفتيه بجذب شفتها السفلى إلى داخل فمه فى عاطفة مشبوبة، وعند ذلك تخطو صديقاتها إلى الأمام للهجوم والإمساك بجبهته من الخلف إلى أن يجبرونه على إطلاق شفة العروس. وبعد مزيد من الرقص والتصفيق، تذهب العروس إلى منزل أمها وتبقى هناك لمدة ثلاثة أيام.

٤ - فى اليوم الرابع ترسل الأم لطلب حق «الحزامية» ويقوم الوزير بأخذ النقود من العريس ويحمله إلى الأم التى تسلمه للعروس، ويأخذ الوزير العروس إلى العريس، ويتركها معه لمدة

ثلاثة أيام.

٥ - واليوم السابع وهو يوم الجيرتق - أو كما يسمى في الغالب «الرباط». ففي هذا اليوم تأتي والدة العريس لزيارته ومعها القلادة المسماة «المطارق»[٩] وهي عبارة عن خيط من الحبوب الذهبية و«السوميت» في الوسط، وسوار من الفضة وخاتم تم غمسها جميعا في اللبن والزريعة، وتقوم امرأة كبيرة السن بتزيين العريس بها وإعطائه بعض اللبن ليشربه. وفي كل هذه الفترة تكون العروس جالسة على عنقريب مخبأ خلف «الكُجْرة»[١٠] وهو بناء من البروش. وعندما ينتهي تزيين العريس. ثم يدخل والده ويقدم له هدية عبارة عن بقرة أو نخلة. ويجب أن يلاحظ أن العروس لا ترتدي أي حلي، إذ إن أي حلي ترتديها قد تنكسر بالتأكيد أثناء الخشونة والاضطراب الذي يحدث طوال مراسم الزواج.

٦ - في اليوم الخامس عشر يطوف العريس ومعه وزيره على منازل الجيران طالبا الهدايا منهم للعروس.

٧ - وفي اليوم الثلاثين يعتبر أن الزواج قد انتهى. ويقوم العريس بإهداء الحلي التي كان يرتديها إلى عروسه، ويستأنف أداء أعماله المعتادة، ويتجنب حماته لمدة شهر أو شهرين فقط. وتختلف المدة التي يمضيها وعروسه في البيت الذي تم فيه العرس..

ويلبس الحرير الأحمر الذي يربط في اليد والشائع في أماكن

أخرى في السودان - عند الشايقية في حالة «ربط الحاملة» فقط، كما أن «الضريرة» التي توضع على الرأس ضرورية بالنسبة للعريس في الأيام الثلاثة الرئيسة للعرس. كما أن عادات الزواج هذه عامة حتى عند الحسانية والمناصير.

٥ - ملاحظات أولية

تتصل عادات الزواج التي وصفناها للتو بعضها بالبعض بشكل وثيق. وبالطبع فإن أي شخص يدرس كيف أن الشعيرة تتجه لأن تتفاوت عندما لا تكون منظمة في قواعد مكتوبة. وستسمح بأن تكون العادات التي تنسجم بشكل وثيق لابد وأن تكون قد جاءت من مصدر عام مشترك.

وينتشر جيرتق الزواج في السودان في مساحة كبيرة تمتد لما وراء الحدود التي تم وصفها فوق المساحة الأكبر في شمال ووسط كردفان وعلى طول النيل الأزرق والنيل الأبيض، وفي كل المناطق التي ينتشر فيها الدين الإسلامي، ووسط البني عامر. والجيرتق غير موجود حسب علمي وسط قبائل البقارة الأقل ثقافة في الغرب ولا وسط الشكرية البدو ولا وسط القبائل المتحدثة بالبدوية في شمال شرق السودان ولا وسط النوبيين السكوت وأسوان. وليس من الصعب الإشارة إلى الأسباب التي أدت لانتشار هذه العادات إلى هذا الحد، وليس لمسافة أبعد. ولكن يبدو مفيدا أكثر أن ننظر في البداية بشكل أكثر اقترابا داخل طبيعة ومعنى هذه العادات المهمة : وسوف

أبدأ بتلخيص الملامح الأساسية لهذه الأعراس:

- يجب أن يبدأ الزواج فى اللحظة التى تكون فيها السماء مبشرة بالخير والسعادة. ويجب أن تستمر اسميا لمدة أربعين يوما. ولكن أهم الشعائر تحدث فى أول سبعة أيام، مثل كساء العروس والعريس بشارة الجيرتق، وقطع رحط العروس. واحتفاظ كلا من العريس والعروس بشارة الجيرتق طوال الأربعين يوما. وهما طوال كل هذه الفترة مطوقان بمختلف أنواع القيود، إذ لا يجب أن يغيرا ملابسهما على سبيل المثال. زيادة على ذلك فبرغم أن أسلوب كل الإجراءات مرحة فإن سلوك العروس تجاه العريس باردة جدا إن لم تكن عدائية. كما أن العلاقات الجنسية التى تكون فى الغالب هى قمة شعائر الزواج، إلا أنها ليست واجبا ضروريا بالمرة فى برنامج هذه الأشياء. كما يلعب الآباء دورا ثانويا، ويظهران فى المشهد بشكل أساسى عندما يكونان مطلوبين للإسهام فى نفقات الولائم. ويتولى الجانب الأكبر وزير العريس وخادمات العروس. وهنا كما فى أى مكان آخر هناك هدايا العرس والشعائر التى ربما تفيد تأكيد الحظ السعيد وخصوبة الزواج.

وربما الشيء الأكثر تشويقا من بين هذه الملامح هى مراسم الجيرتق. وهناك بالطبع شعائر مشابهة فى الطهور (الختان) وفى الشهر السابع من الحمل. وقد استخدمت هذه الشعائر فى سالف الأيام كجزء من مراسم تتويج الملك. وبالتأكيد فإن

العلاقة بين هذه العادات قد عبر عنها فى المثل القائل: «ابن العرب ملك فى يوم ختانه ويوم عرسه» ويختلف رأى الأهالى بشأن هذه المراسم بشكل أكيد عما هى عليه بشأن أهميتها. وسوف يقول لك بعض الأهالى إن كل حلى لها فاعليتها الخاصة، فعلى سبيل المثال قال لى أحد العرسان إن وضع سعف النخيل هو حجاب خاص ضد أرواح الماء. والقطعة النقدية الذهبية ضد الأرواح التى ربما تبعت أى شخص قابله تصادف أنه كان قادما من المقابر. أما الخرزة الزرقاء فى الحريرة هى حجاب ضد «المشاهرة» الضرر المعرض له الشخص فى وقت الولادة والطهور والزواج.

إن الإيمان أو التبرير الذى من هذا النوع شائع بالطبع فى كل أنحاء العالم. ولكن الناس فى هذه البلاد تقدموا بشكل عام إلى مرحلة أخرى. فهم يضعون أهمية خاصة على كل تميمة أو حجاب على حدة، ولكنهم يؤمنون بأن بعضا من سوء الحظ سوف يصيبهم إذا هم أغفلوا ارتداء أى واحدة من تلك التمائم المألوفة عند قومهم. وبالطبع هناك آخرون لا يعلقون أى أهمية محددة لهذه التمائم أكثر مما تفعله الطرحة الطولية التى تلبس فى غرب أوروبا عند تعميد طفل، والأعراس المشتركة. إن هذه الحلى هى ببساطة شارات مألوفة تلبس عند مراسم الأعراس والختان والشهر السابع[11].

ولكن طالما كان الأمر يتعلق بالزواج فإن الملمح الأكثر أهمية

هو أن حلى الجيرتق يلبسه الولد مرة واحدة فقط، أى عند زواجه الأول وتلبسه الفتاة مرة واحدة فقط عند أول زواج لها، سواء كانت تتزوج عازبا أو لا. ولا أحد يصبح عريسا بوزير أو عروس بوزيرة لأكثر من مرة واحدة. ولا يلبس الرجل حلى الجيرتق مرة ثانية مهما كان عدد النساء اللواتى قد يتزوجهن. حتى لو توفيت زوجته أو حتى لو طلق زوجته وحتى لو كانت ما تزال عذراء. وهذه الحقيقة تجعل جيرتق الزواج فى السودان شيئا مختلفا عن الزواج فى الغرب. ويجعله يقع فى مرتبة المراسم المعروفة كشعائر الانتقال.

إن نظرية هذه الشعائر هى إلى حد ما كما يلى : تنقسم الحياة فى الجماعة إلى سلسلة من المراحل المحددة بشكل محكم. وإن انتقال أو تدرج عضو الجماعة من مرحلة إلى مرحلة التى فوقها تتطلب تأدية شعائر معينة. وربما تعتبر الشعائر أثناء الحمل كعلامة للميلاد الذى يؤدى إلى الحياة. وشعائر الختان تتطابق مع الانتقال من الصبا إلى سن المراهقة وشعائر الموت الانتقال إلى الآخرة. كل هذه الشعائر كشعائر انتقال، لديها الكثير المشترك الواحدة مع الأخرى. وقد أظهر الانثروبولوجى الفرنسى (أرنولد فان جنب) أنه يمكن بشكل عام تمييز ثلاث خطوات أو درجات : الشعائر التمهيدية التى يترك فيها المبتدئ بعد الإعداد الواجب وضعه السابق ويدخل عتبة الوضع الجديد - الفترة الواقعة على عتبة الشعور أو هامشية الفترة - إذا جاز

التعبير - على العتبة معرضا لمخاطر خاصة. وثالثا شعيرة الانتقال النهائى عندما يتم قبوله في الوضع الجديد، ويتخلى عن مختلف الصفات التى كان يحملها فى المرحلة الهامشية.
ويبدو واضحا لى أنه يمكن تتبع خطة أو مشروع مماثل فى شعائر الزواج السودانية. وربما هناك اختلاف فى الرأى فيما يتعلق بمخطط الشعائر الخاصة. وبالنسبة للمكان المحدد فى المراسم التى فيها يجب رسم الخطوط الفاصلة بين المراحل. وهنا إضافة أو كفاءة مهمة يجب القيام بها. ومع ذلك فهذه تفاصيل لحظة وجيزة بالنسبة للضوء الذى ألقاه مخطط فان جنب على المعنى الأكثر أهمية فى المراسم وتسلسلها.

من الواضح أن الجيرتق والحنة وشعائر الإعداد قبل بداية أول تخل عن الوضع القديم. كما أن سيرة العريس من منزل والده بصحبة أصدقاء صباه الذين يبدأون فى تركه بالتدريج خلال الأيام القليلة التالية. البعض بعد الدخلة وآخرون فى ليلة القيلة، كلها شعائر انتقال. كما أن غياب والديه أو الجزء غير المهم نسبيا الذى يلعباه هى النتيجة الطبيعية للفهم الضمنى بأنهم لا ينتمون إلى الطبقة التى ارتحل إليها، ومن ثم لا مهام لهم ليؤدوها فى هذه المناسبة.

وقد تم فى ذات الوقت إعداد العروس بذات طريقة العريس، ومن الواضح أن قطع الرحط هى شعيرة انتقال من الطبقة التى كانت تنتمى إليها حتى الآن. كما أن الصراعات والاعتراضات

التى تحدث فى بعض الأحيان عند الدخول إلى منزل العروس، والغرامات والرسوم التى يدفعها العريس أو أصدقاؤه، والاختفاء المؤقت أو مقاومة العروس يمكن تفسيرها على أنها كل ما تبقى من «الزواج عن طريق الأسر» ولكن بالنسبة للوجود العام لهذه العادة، هناك دليل ضئيل جدا، ومن المحتمل أن فان جنب محق فى اعتبارها كلها كتغيير لذات فكرة الانتقال سواء من زمرة الطبقة أو من جماعة الأسرة.

وما يكمل الفترة التمهيدية اعتبار أيام السكون الأربعة أو الخمسة التى لا تسهم فيها العروس بأى دور نشط، كفترة حدية. فالمراسم الغريبة للحضانة هى الصفة العامة النموذجية للفترة الحدية. وهكذا نأتى إلى اليوم السابع - اليوم الذى يترك فيه - بعد شعائر معينة - العروس والعريس وحدهما معا لأول مرة فى مسكنهما الجديد. وستعتبر الشعائر التى تتم فى هذا اليوم طبقا للخطة العامة، كشعائر انتقال. ففى هذه الفرضية، فإن كب العيش سيفسر على أنه ليس كأى أرز أو حبوب كثيرة ترش كمراسم لشعيرة الخصوبة، ولكن كرمز لاعتماد العريس والعروس فى المستقبل على الزاد العام المشترك للطعام. كما أن قطع رحط العروس يؤخذ كرمز للاتحاد الإضافى بين الاثنين. أى وضع حد للمرحلة الحدية التى بدأت بالنسبة للعروس مع قطع الرحط.

وطالما تتلاءم عادات الزواج السودانية هذه داخل المخطط

العام لشعائر الانتقال، فإننا مواجهون الآن باختلاف واضح. فما وصفناه كشعائر تدرج (تخرج) لا يؤدى إلى انتهاء مراسم الزواج، ولكن تتبعه المرحلة الحدية أو الاختبارية التى تستمر من اليوم السابع حتى الأربعين ثم يختتم العرس. ومن الطبيعى بذات الشعائر البسيطة للانتقال، مثل شارة خلع الجيرتق وغسل الملابس وتخطى دم الذبيحة. إن نموذج كل المظاهر الاحتفالية للزواج ليست ثلاثة أجزاء طبقا للنموذج الذى ذكره (فان جنب) ولكنه مكون من خمسة أجزاء.

إن المرحلة الحدية الثانية مثيرة للانتباه بشكل خاص، لقد غادرهم أصدقاؤهم الصغار، وأمضى العروس والعريس هذه الفترة فى اتصال متجدد دائم أحدهما مع الآخر فى مسكنهم الجديد. فالعروس غالبا ما تمضى كل الوقت دون أن تنطق بأى حرف إلى العريس، ولكن يجب على الاثنين أن يكونا على اتصال دائم أحدهما مع الآخر هذا هو المظهر الواضح لهذه المرحلة. ويبدو كما لو أن الفكرة معناها أنهما يجب أن يشبا معتادين أحدهما مع الآخر ومع البيئة المحيطة ببطء.

وإن هذه عملية صعبة وخطرة، وإنه النمط الذى يصف بها الانثروبولوجيون مراحل هذا النوع كمراحل مقدسة أو دينية، ولكن النعت الوحيد الذى يستخدمه المواطنون هى كلمة «أخضر» مقارنة بالبرعم الطرى أو الرخص. وعند نهاية الفترة يقولون إن الشاب يجب أن يكون «يابسًا» مثل الشجرة التى

زرعت الآن بقــوة. وتوحى هذه النعـوت بشكل أفـضل من مصطلح دينى أو مقدس، بأن حالتهم قد وصلت بمعنى أكثر من رسمى إلى حالة الأشخاص الذين يعبرون من خلال مراحل أخرى للانتقال. ويعتقد أن حياتهم القديمة قد ماتت وأنهم يولدون فى حياة جديدة مثل شعائر الاستهلال.

وسوف أشير بإيجاز إلى ملامح قليلة نالت الأهمية فيما يتعلق بوجهة النظر هذه: فالأربعين يوما - الفترة التى تم خلالها ارتداء حلى الجيرتق - يتطابق مع منازل القمر، كما أنه الوقت الذى يجب أن تبقى فيه المرأة فى البيت بعد الولادة، وفترة «الفراش» أو أيام الحداد بعد الدفن التى يرقد خلالها أصحاب المتوفى على الأرض، كما أنها الفترة التى كان خلالها ملوك ارقو والمحس يعتكفون فى المنزل بعد تتويجهم، كما قيل لى إن سلاطين دارفور والحكام العظام كانوا فى الزمن القديم يعتزلون لمدة أربعين يوما بعد تولى المنصب. أما الشيوخ الصغار فقد كانوا يعتزلون لمدة سبعة أيام فقط . وتشبه قلادة الجيرتق القلادة التى كان يتزين بها الميت فى الأزمنة القديمة. وفى مصر كانت التمائم توضع على رقبة الشخص العظيم حيث «تدلت من أغصان شجرة الجميز وخضلت بعصارة البراعم الصغيرة» وما عصارة البراعم سوى الزريعة أو الذرة التى تم استزراعها بالماء إلى أن تنبت. كما يظهر السوط الذى يحمله العريس فى المقابر القديمة فى مصر والنوبة فى أيدى أوزوريس وحورس

والملك العظيم.

إن زيارة النهر بالنسبة للعريس وزيارة الأمهات للنهر فى الأربعين يمكن مقارنتها بالعادة القديمة لسكب السائل (الإراقة) على جسد الأضحية تكريما للآلهة. كما يمكن تفسير بعض هذه العادات كتطهر وفقا لطقوس معينة. ولكن فكرة الاتصال المتجدد مع الماء - مصدر الحياة - يؤكد الشعائر الأخرى. والفكرة المشابهة التى تشكل قطع وحمل الأوراق الخضراء أو الفروع هو ملمح موجود أيضا عند تنصيب الشيوخ. إن الصورة العامة لكل هذه الطقوس بالنسبة للطقوس الجنائزية أنها مثلت مرة أخرى فى العادة الباقية لوضع الجريد على المقبرة من نخلة كانت مملوكة للمتوفى. كما قد يلاحظ أيضا أن الملوك والملكات فى أماكن الصلاة الموجودة فى الأهرامات فى مروى تم تصويرهم وهم يحملون جرائد النخل.

وغير مسموح للعروس والعريس غسل ملابسهم خلال الأربعين يوما. كما أن ذات الحظر مفروض على الأم الوالدة، وبالطبع فى حالة الوفاة. وربما تكون الفكرة أن الملابس من كل الأنواع ستكون مصدرا للعدوى للكائنات العادية. وعلى العريس كلما خرج من البيت أن يحمل معه سيفا لحمايته من الأرواح الشريرة. ولذات السبب ترتدى المرأة الوالدة (النفساء) إبرة فى رأسها لحماية نفسها من الأرواح الطائرة خاصة تلك المجسدة فى البوم. ومسموح للعريس فى مناسبات

بعينها أن يأخذ أى شىء يرغب فيه من جيرانه، تماما مثلما هو عند المحس فى وسط السودان بعد الختان، إذ مسموح لأصدقاء الولد المختون بسرقة أى شىء يريدونه، كما يتم تعليق خطاف من سقف الحجرة إذ ربما يعلق فى هذا الخطاف الأشخاص الذين يأتون لزيارته (يتم فى دنقلا تعليق سبحة كبيرة أمام الباب لنفس الغرض. المترجم) ويجبرون لافتداء أنفسهم. إن الأشخاص فى هذه الحالة يعتبرون خارج القانون الأخلاقى ومفصولون عنه، إنهم - مرة أخرى - مثل الأطفال الصغار والموتى.

وأخيرا: هل يوحى الجيرتق أو الصرخة الخرساء التى يتوقع أن تطلقها العروس، بأنها الذكرى الماضية لصرخة الرضيع المولود حديثا. إن الصمت الطويل فى هذه الحالة ليس مرجعه أى تحريم (تابو) جنسى، ولكن للتظاهر بأنها مازالت طفلة لم تتعلم الكلام بعد. ومن الطريف ملاحظة أن الشبه بين شعائر الزواج والشعائر الجنائزية قد سحرت اليونانيين بشدة، لدرجة أنه دخل فى حياتهم اللاشعورية وأنهم كانوا يفسرون الحلم بالزواج على أنه نذير بالموت.

ويمكننا اقتباس العديد من الدول الأخرى، ولكن ليست هناك ضرورة لذلك. فالآلية العامة والأفكار المركزية الضمنية هى أن عادات الزواج التى مازالت غالبة فى جزء كبير من السودان هى - نأمل - أن تكون الآن واضحة. فكلها تعود إلى

الزمن الذى كان فيه للناس أفكار مختلفة تماما عن الحياة والموت عن هذه التى يتمسك بها المسيحيون والمسلمون المحدثون. فما زالت بعض الممارسات غامضة - مثل العديد من الثقافة المادية للكون - ربما تعود إلى مصر القديمة. ولكن يجب تأجيل أى نقاش إضافى فى الوقت الحاضر.

هوامش وتعليقات

١ - مثل شهر صفر، ويسمونه «الوحيد» ولا يقيمون فيه الأعراس .

٢ - الضريرة: مسحوق الصندل والمحلب يذر على الرأس في مناسبتي الختان والعرس. يقولون لمن مات شابا «مات لا ضاق (ذاق) الحريرة ولا الضريرة»، أي أنه لم يجرتق أو تذر على رأسه الضريرة. كما يقولون فلان ضاق الحريرة والضريرة أي أنه نعم بزواجه.

٣ - البنيتة: البنيتة والعديلة من أغاني الأعراس وهي، تخاطب الشبان وتشهدهم على مناقب الممدوح .

٤ - استقر المحس قبل قيام سلطنة الفونج في منطقة النيلين عند جزيرة توتي وشمبات والصبابي والعيلفون وما جوارها ونسوا تدريجيا لسانهم النوبي وصارت العربية لغة لهم .

٥ - البوسيب: نوع من الكسرة المخمرة تطبخ بشكل مفتت ثم تستعمل كمشروب .

٦ - من رقصات العروس حيث ترقص وفجأة تتوقف ولا تتقدم .

٧ - البوش: المجتمع في الأفراح .

٨ - الشملة: كساء من الصوف الأسود غليظ يستخدم للدخان .

٩ - المطارق: حلية تحيط بالعنق عبارة عن قلادة من قطع دقيقة من الذهب أسطوانية الشكل تنظم في خيط، وتفصل بنوع من الخرز يسمى (القصيص) مستدير الشكل ومن حبوب من الذهب صغيرة تسمى المتمن .

١٠ - الكُجْرة : ستارة على العنقريب تكون ساترا للعروس أما في النوبة فهي البرش الكبير المزخرف .

بعض العادات والمعتقدات

عند السكان النهريين

الميلاد والطفولة المبكرة

المشاهرة :

تطلق كلمة مشاهرة على كل الأمراض التى يتعذر تعليلها ظاهريا، التى تتعرض لها المرأة الحامل، والتى قد تتسبب فى الإجهاض والولادة المتعسرة إذا لم تعالج أو تطرد فى الحال.

وتصيب المشاهرة المرأة إذا هى رأت ميتا أو ذهبت إلى مأتم. أو إذا زارها أى شخص كان فى مأتم أو رأى ميتا. لذا فمن الضرورى بالنسبة لأى شخص جاء من مأتم ويرغب فى زيارة امرأة حامل، أن يطرد أرواح الميت الشريرة بالرقى والتعاويذ قبل أن يقوم بالزيارة. ويتم هذا إما بالنظر داخل بئر أو زيارة بعض الأشخاص الذين لم يكونوا فى مأتم. ومع ذلك فإذا ما ذهبت الزائرة مباشرة إلى المرأة الحامل فإنها تتعرض للمشاهرة فى الحال. ولكى يتم شفاؤها يجب البحث عن حمار مات قبل عام على الأقل ومن ثم تلف العظام فى خرق تقليد للجثة. ويتم استدعاء الجارات للنواح عليه كما لو كان قريب ميت. ويجب القيام بذلك بشكل حاد جدا ويصحن :

يا ولد قيسوم ، نبكى عليك

ويجب دفن العظام فى احتفالية فى أرضية الحوش، ويرش

الماء على القبر الزائف .

والسبب الآخر الذى يسبب المشاهرة هو الذهب ، فإذا كانت إحدى الزائرات ترتدى الحلى الذهبية ، فيجب طرد روح مشاهرة الذهب بالرقى والتعاويذ مباشرة بعد مغادرة الزائرة . ويتم هذا بارتداء الحامل الذهب ، ويوضع التمر والحبوب أسفل عنقريبها . وإذا لم يكن متاحا وجود قلادة أو أسورة ذهبية ، فإن شلنا إنجليزيا قد يستخدم كبديل عن الذهب . من المحتمل للتشابه بين تصميم الشلن والجنيه الذهبى الإنجليزى . ففى شمال السودان - عند الرباطاب والجعليين والشايقية - هناك - «قرعة» بها تمر وحبوب موضوعة بشكل دائم تحت عنقريب الحامل كتدبير وقائى ضد المشاهرة .

تحريم إراقة الدماء

على الزوج لحماية زوجته من الإجهاض الامتناع كلية عن إراقة الدماء . ويجب عليه عدم ذبح أى حيوان بيديه حتى فى عيد الأضحى وإلا فإن زوجته ستعانى بتأكيد بشكل شديد عند الولادة ، وربما تفقد حياتها . ومن المحتمل جداً أن يتعرض الجنين للمسخ والتشويه أو يولد ميتا .

تعاويذ الفكى

على الزوج استشارة الفكى الذى ربما يعطيه تعويذة بعد دفع

البياض. وكانت هناك ثلاثة أنواع شائعة من التعاويذ «البخرة» : وهى قصاصة من الورق تحتوى على عبارات تنجيمية، كان يتم إحراقها واستنشاق الدخان المنبعث منها. أما «الحجاب» : فقد كان وصفة تنجيمية تكتب على فرخ ورق يتم فيما بعد لفه وتغليفه بالجلد طبقا للشكل المطلوب بواسطة «جلاد» محلى ماهر.

ويجب أن تكون قصاصة الورق المستخدمة فى البخرة والحجاب من نوع معين من الورق يسمى «أبو شباك» وقد استمد الاسم من العلامة المائية التى تشبه الشباك. وأبو شباك ورق مصنوع فى أوروبا كتقليد لورق العصور الوسطى الذى كان يستخدمه المسلمون لأغراض دينية. وما زال هذا الورق يستخدمه بشكل واسع الشيوخ - الكثير منهم ليست لديه أدنى فكرة عن صناعته غير الإسلامية.

أما النوع الثالث من التعاويذ فهو «المحاية» وهو مكون من آيات قرآنية تكتب بقلم مصنوع من قصب الذرة، وحبر مصنوع من السناج والصمغ العربى والماء. وتتم الكتابة على لوح خشبى ثم يغسل اللوح بالماء فى إناء، وعلى الحامل شرب السائل المقدس الذى يعتقد أنه سوف يساعدها ضد كل شرور الوضع. أما الآن فإن المحاية أصبحت تكتب على صحن صينى نظيف ويستخدم العسل بدلا من الحبر الأسود.

أما البخرة أو الحجاب أو المحاية التى يقوم بكتابتها رجل دين.

ليس هو الفكي الرسمي للقرية فلن يكون لها أى تأثير. إذ الفكي الرسمي هو الذى له حق كتابة الوصفة التى نقلها إليه أبوه الذى تسلمها من أبيه. وقد كان هو وحده الذى لكتابته القيمة الحقيقية، وهو الذى يستحق أن يعطى له «البياض» والبياض - بعض النقود - شرط ضرورى لفاعلية التعويذة.

سحر العجائز

تقوم النساء العجائز - خاصة أم الحامل - بتزويدها بكل أنواع الأشياء السحرية الأخرى التى سوف تحرسها من أذى السحرة ومن الحظ السيئ. وقد كان الجعران يعتبر أداة قوية جدا ضد السحر[1] أما الشىء الآخر المفيد اقتناؤه فقد كان حجر الدم. وهو حجر صغير مستدير متعدد الألوان مازال يستخدم بشكل واسع فى المدن. وكان الشهر السابع هو مناسبة أداء الشعيرة المهمة المسماة بالجيرتق. ومازال الجيرتق يمارس فى مناسبات العرس والطهور والنفاس. وكانت المرأة الحامل تجلس على عنقريب مغطى ببرش من سعف الدوم المزخرف بسيقان القمح الملونة، بعد أن تكون قد أجرت المشاط لشعرها بالطريقة التقليدية قبل عدة أيام، وقد توج شعرها بالدهن المخلوط بخشب الصندل المعطر، وقد أحيط طرفه بشريط من الحرير الأحمر مربوط به خرزة ذات لون أزرق مخضر (تركواز) على الجبهة عند مفرق الشعر. ثم يزين

الشعر بالخرز والصدف المسمى «الرخيمى» وتكحل العيون والحواجب بالكحل، ويدعك الجسم والوجه بالدلكة (عبارة عن دهون وعطور) كما تلبس قلادة تسمى «فرج الله» وتربط حريرة حول رسغ اليد اليمنى بها خرزة وأصداف ذات قوة سحرية. كما تربط بالحريرة أيضا فقرة كبيرة من فقار السمك النيلى أو البحرى، معا مع ريشة نعام.

وتعتبر هذه الأشياء ضرورية جدا. كما يوضع بالقرب من عنقريب الحامل تماثيل صغيرة ذات شكل منفر جدا، مثل تلك التماثيل التى كان المصريون القدماء والنوبيون قد اعتادوا الاحتفاظ بها فى مقابرهم[٢]. وهذه الأشياء كلها سوف تحميها من العين الشريرة، لذا يجب أن تبقى بالقرب منها إلى أن تنتهى فترة الولادة. ويلاحظ أن عادة الاحتفاظ بالتماثيل الصغيرة هذه غير موجودة عند بعض فروع الجعليين فى بربر وعند الرباطاب.

وهناك شعيرة أخرى خاصة بالجيرتق نجدها فى المسنار وسنجة. وهى «أكل العصيدة» حيث يتم ملء قدح كبير بالعصيدة والسمن. وتشارك الحامل فى أكل العصيدة. كما يفعل الشىء ذاته الحاضرات من النساء ويقمن بأخذ ملء الكف من العصيدة ومسحها على بطن الحامل المكشوفة قبل أن يأكلن. ويقال إن هذا يساعد المرأة التى لا أطفال لها والمرأة المتزوجة حديثا على الحمل.

وليس للسمن أى معنى سحرى فى الشعيرة. وتتمركز هذه الشعيرة الخاصة بالعصيدة فى الرمزية السحرية فى المرأة المتزينة والبطن المكشوفة ومسحها بالأيدى.

وتبقى المرأة فى حالة الجيرتق - أى أن ترتدى زينة الجيرتق وتبقى حبيسة البيت لمدة أسبوع واحد. ويسمح لها بعد ذلك بالقيام بنشاطاتها المنزلية. ومع ذلك عليها الانتباه لكل المحرمات التى - إن أهملت - قد تسبب الإصابة بالمشاهرة.

عملية الولادة

يقوم الزوج أو أى ذكر من أقربائه - عند الولادة - باستدعاء قابلة القرية. ولن تستجيب القابلة إلى أى دعوة من أنثى، إذ تعتبر أن هذا الأمر إهانة لها. ويمتلئ منزل المرأة التى على وشك الولادة بالنساء. وتقوم القابلة عند وصولهابالسؤال أولا عن فرع شجرة الخلاص[٣]. وتقوم بغمس الفرع فى الماء فإذا انتفخ وتوهج باللون فإن الأمر يؤخذ كعلامة على الولادة السهلة، أما إذا لم ينتفخ ويتوهج فإن الأمر يعنى أن الولادة ستكون عسيرة؛ لذا فإن القابلة تغمس الفرع فى الماء عدة مرات إلى أن ينتفخ ويظهر على الأقل علامات على أنه بدأ فى الانتفاخ. وتقوم بعد ذلك بإصدار تعليماتها إلى النساء بربط حبل قوى فى عمود السقف بالقرب من الشعبة - وهو عمود فى وسط البيت يسند السقف[٤]. وإذا قامت امرأة كبيرة السن

وأكثر خبرة بتثبيت الحبل في المكان المناسب قبل وصول القابلة، فإن القابلة في هذه الحالة تلقى نظرة عدائية خاطفة على الحبل وعلى المرأة التى تتوقع أنها هى التى قامت بذلك دون الامتثال لأوامرها. وتقوم بانتقاد وضع الحبل أو طريقة ربطه فى العمود أو تعلن ببساطة أن الحبل ضعيف جدا وغير متين. وبعد نقاش حار يتلوه تعديلات طفيفة تصبح القابلة راضية عن الأمر، وتقوم بالكشف على المرأة، وتعلن أن موعد الولادة مازال بعيدا، تستلقى على سرير أعد لها خصيصا وتتظاهر بالنوم.

وتبقى النساء فى صمت لبعض الوقت تستمعن لتوجعات المرأة ثم تبدأ واحدة منهن - إحدى الخالات فى الغالب - وهى تلف حول وسطهاسبحة وتقول «لنصلى ونمدح النبى والأولياء» ويبدأن في الانضمام إليها وترديد الترنيمة التالية :

يا حلال الحاملة

من غلاما جاهلا

ال بيضيقها ويمهلا

وجبريل ناجى ربه وجا

وحلها ال ما يدور جزا

ويا حلال حلها

ويا بلال بلها

ال عدل الأمور هو يحلها

بدء مهام القابلة

تعلن صرخة الألم التى تطلقها الحامل فى وسط أصوات الغناء للقابلة بأن ساعة الولادة قد حلت، وعليها أن تنهض من تظاهرها بالنوم وتبدأ فى إصدار أوامرها. وقد رويت العديد من المعجزات والقوى الغريبة عن القابلات وقدرتهن على التعرف على أن صرخات المرأة هى الصرخة الحقيقية الدالة على قرب الولادة. وعلى النساء أن يحفرن أولا حفرة عند أسفل الحبل ليتجمع فيه الدم المنسكب من الأم. وعلى العجائز من النساء أخذ هذه الدماء والتخلص منها فى الحوش. كما على النساء مساعدة الأم للوقوف بجانب الشعبة والإمساك بالحبل بقوة كلتا يديها[٥] وتقوم القابلة بعمل شق فى الأجزاء التى كان قد تم إجراء الختان فيها بشكل كاف يسمح بمرور الطفل. ولا تشعر الأم بأى ألم من الشق الذى أحدثته القابلة لأن الآلام الداخلية للمخاض أعظم من أى آلام أخرى.

ويعتقد أنه يستحسن بالنسبة للمريضة أن تئن وتصرخ بطريقة عالية ظاهرة وألا تتظاهر بالشجاعة والتحمل، لأن ذلك سوف يعرضها للعين الشريرة[٦]. ومع ذلك فإن بعض النساء لا يبالين بهذا الاعتقاد الشائع. وعندما يصيبهن سوء الحظ أو يصيب ذريتهن فيما بعد فإن يعزى عادة إلى هذه الشجاعة العنيدة عند الوضع. وتبدأ بعض النساء فى دعوة الأولياء قائلات:

يا الله القوى هوى
يا الرسول
أبو الباتول
يا الشيخ الميدوب
يا سيدى الحسن
يا نقر الشول
الخاتى القول
يا الأوليا
ويا الأنبيا
هوى يا رجالة أب حراز

والبعض الآخر يردد التعابير الشائعة التي تعبر عن الخوف والقلق:

يا ساتر
يا رحمن

وقد تضيف بعض الحاضرات أصواتهن إلى الضجيج والضوضاء. وقد يستمر هذا إلى أن يولد الطفل وتخرج المشيمة بالسلام. وأى تأخير فى خروج المشيمة قد يسبب بعد الانزعاج، ومن ثم الصمت، ويسود التوتر كنذير بالشر وإفساد للنظام المعتاد فى أداء الشعيرة.

أما فى الحالة العادية فإن القابلة تعلن عن جنس المولود بمجرد الولادة. ويقابل المولود الذكر بالزغاريد. أم الفتاة فتقابل

بزغاريد خافتة. وعندما تطمئن القابلة بأن الإجراءات الخاصة بالمخاض قد اكتملت بسلام، يتم إرقاد الأم على سرير أو على برش وتقوم القابلة بضم الشق الذى أحدثته بغرز من الحرير وأشواك الطلح. بأن تغرز الأشواك على جانبى القطع وتمرر الحرير حولها، وبذلك تقرب جانبى القطع. وترد هذه العملية أجزاء المرأة إلى حالة الشدة التى كانت عليها فى الأصل بعد الختان.

المشيمة

يتم دفن مشيمة الولد فى حوش الأسرة فى الغالب بالقرب من أساس المنزل بقدر الإمكان دون أى غناء أو تعاويذ سحرية. أما مشيمة الفتاة فتدفن مصحوبة بالضحكات على أمل أن تصبح الفتاة امرأة جذابة. ويعتبر دفن المشيمة كرمز للحماية. ويشير الدفن الاحتفالى إلى أنه لا ضرر سوف يصيب الطفل عن طريق المشيمة.

وهناك طريقة أخرى - تمارس بشكل واسع ومازالت تمارس فى أم درمان - وهى إلقاء المشيمة فى النهر. وهكذا يتم إخفاؤها رسميا وعلنيا من الأشرار. أما فى مناطق جبال البحر الأحمر فيتم إلقاء المشيمة على شجرة وتترك هناك لتجف وتذبل أو تلتهمها النسور(٧) وهذا يعنى بالطبع كرمز بأن المشيمة منبوذة ومرفوضة. وعلى أية حال فإن المشيمة تعامل

بشكل أساسى كشىء شرير يجب التخلص منه ونبذه. وليست هناك حسب علمي أى روايات أو قصص عن استخدام المشيمة فى أغراض السحر الأبيض أو الأسود.

وإذا ما ولد طفل مشوه بشكل شديد على صورة بشعة، فإن الأم ترفض إرضاعه (الطريقة الوحيدة المعروفة لتغذية الطفل) ومن ثم فقد يموت الطفل. لذلك إذا ولد طفل «البينو» فإنه يعامل بذات الطريقة. وفى حالة ولادة توءمين أحدهما فى حالة ضعف فإن القابلة قد تنصح الأم بتغذية التوءم القوى فقط. ومع ذلك فقد عاش أطفال مشوهون. كما يتم فى الغالب تجاهل نصيحة القابلة بشأن التوءم الضعيف.

الجيرتق الثانى

بعد أن تنتهى القابلة من عملها يتم كنس البيت وإعداده لاستقبال الزوار من الجنسين. ومع ذلك لا يحضر أى رجل ولا حتى الزوج عملية الولادة الطبيعية. وتسمى الأم الجديدة «بالنفسا» وتخضع وطفلها لشعيرة تزيين جيرتق النفاس. وتتكرر ذات الإجراءات الشكلية التى تمت فى الجيرتق السابق مع إضافتين: الأولى هى «الكجرة» والثانية هى «الجيرتق». أما الكجرة فهى نوع من الهودج مصنوع من البروش يتم نصبها حول السرير تدعمها جرائد النخل. ويتم وضع الأقواس المصنوعة من الجريد على جانبى العنقريب. ويفرش ثوب

«السرتية» فوق السرير كبطانة داخل الكجرة. وترقد الأم النفسا داخل الكجرة متزينة بكل حلى الجيرتق. ويسير الاتجاه الآن فى أم درمان نحو جعل النفسا تشبه بقدر الإمكان العروس الجديدة. إذ يتم تمشيط شعرها بذات طريقة العروس، كما ترتدى كل حليها الذهبية، ويغطى سريرها بثوب «القرمصيص» الذى كان مستخدما ليلة العرس.

الطفل

يتم وضع الطفل فى قطع من القماش، إذ لم تكن لا الأم ولا أى من قريباتها أو صديقاتها قد أعدت أى نوع من الملابس للطفل قبل مجيئه، كما لم يتم توفير ملابس له لمدة طويلة إلى أن يبدأ الطفل بالفعل فى السير والجرى هنا وهناك فى المنزل. ويبدو أن هناك اعتقادا بأن عرى الطفل سيساعد فى حمايته من العين الشريرة. وبعد وضع الطفل على قطع القماش، تقوم النساء بوضع علامة الصليب بالكحل على جبهته وخدوده. ويعتقدون أن المسيحيين محصنون ضد العين الشريرة، كما يعتقد أن المسيحيين يملكون قوة تحويل الشر إلى الآخرين عن طريق عيونهم الشريرة. إن علامة الصليب ستعطى الطفل - برغم ولادته مسلما - درجة كبيرة من الحصانة. ومازال يتم رسم علامة الصليب بالماء فى منطقة حلفا على جبهة وراحة يدى الطفل المولود حديثا، الأثر الواضح للمسيحية. كما يتم

ربط خيط حول خاصرة الطفل، إذ يعتقد أن هذا سوف يساعد في جعله ذى بنية صحيحة في المستقبل، وأن عدم ربط الخيط من جهة أخرى سيؤدى إلى انتفاخ بطنه، وأن هذا قد يؤثر بشكل خطير على النمو الطبيعي لأجزائه اللاحقة، وقد يحتوى الخيط أو لا يحتوى على خرز. ويتم تكحيل عيون الطفل بالكحل، ويمسح رأسه بالدهن وفتات خشب الصندل. وقد يدهن جسمه بالزيت. وهكذا تتم عملية الجيرتق الخاصة به.

الذبيحة

على الزوج ذبح خروف في الحال شكراً لله وتسمى هذه العادة «الحلالة» ويستغل بعد الآباء في المدن هذه المناسبة عندما يكون هناك لحم كثير، لإقامة احتفال كبير يتم فيه الإسراف في احتساء الخمور، خاصة إن كان يوم جمعة أو عطلة، وتعطى القابلة حصة كبيرة من لحم «الحلالة» - الربع في العادة - مع التمر والحبوب والدهون المعطرة كأجر، ومع ذلك فإن القابلات يصررن هذه الأيام على مبالغ نقدية وسجائر بالإضافة إلى حقوقهن التقليدية.

ويتم ربط العظام المتخلفة من «الحلالة» في أركان الكجرة ثم تعلق فيما بعد حزمة منها في السقف، لتعمل كدليل وبينة مرئية على أن أضحية الحلالة قد ذبحت، وأنها سوف تعمل علاوة على ذلك لطرد الأرواح الشريرة، وتحمى الطفل المولود حديثا.

ومن المحتمل جدا أن هذه العادة بقيت من الممارسة الوثنية القديمة عندما كانت الآلهة تتغاضى عن أو تفشل فى ملاحظة الأضاحى التى تقدم لها، ومن ثم يجب تذكيرها وتحديها بالدليل المرئى، ويأتى سيل من الزوار بعد إتمام الجيرتق، ويقوم الزوار بتهنئة النفسا والأب بقولهم: الحمد لله على السلامة وانشا الله مبارك.

ويتوقع أن تقول كل امرأة تقترب من الأم : صلاة النبى. كما ينتظر أن يقول كل رجل: ما شاء الله.

وطبقا للتقاليد فإن كل مسلم عادى يمتلك العين الشريرة، أى: قوة توجيه الضرر خلال نظرة إعجاب سريعة على أى شىء بشكل لطيف، وهناك عدد من العبارات تقال للتحرز ضد هذه العين مثل «صلاة النبى. ماشاء الله. وعجب عينى»، والعبارة الأولى والأخيرة هما أكثر العبارات شيوعًا عند النساء، كما أن المسيحيين يمتلكون العين الشريرة - أيضا - ولكن فى شكل أكثر فعالية وقوة، وعندما يعجبون بأى شىء يخص مسلمًا، عليهم أن يقولوا ماشاء الله، وصلاة النبى، ويستعمل هذا كإجراء مضاد. وإذا ما أهملوا قول ذلك فإن الحاضرين يذكرونهم به.

ولبعض الأشخاص - أيضا - قوة عظيمة جدا لإلحاق الأذى بالعين الشريرة، لدرجة لا تكون كافية قول ما شاء الله وصلاة النبى للحماية ضد تلك العين. فكل قرية لديها واحد أو اثنان

من هؤلاء الأشخاص غير المرغوب فيهم، فالنيجريون أو الحول أو العور أو ذوى النظرة المنفرة هم الرجال والنساء الذين يشك فى أنهم هم الذين لهم القوة الخبيثة، وتسمى المرأة ذات العين الشريرة «السحارة» أو الساحرة، أما الرجل ذو العين الشريرة فيسمى «السحار» أو الساحر.

وعندما تدخل المنزل ساحرة لتهنئة النفسا وتنظر إلى الطفل يسود جو مشحون بالتوتر، ويجب عليها أن تقول بصوت مرتفع:

داقر عينى

داقر عينى

عين الحسود فيها عود

وستثبت هذه الأقوال للنفسا ولأقربائها بأن الزائرة ليست لديها نوايا خبيثة. ولكن الأقارب والنفسا ذاتها لن تكون راضية بذلك، ولتأكيد مضاعفة الضمان عليهن أن يرددن مع الساحرة: داقر يا عين

عين الحسود فيها عود

وحتى أن بعض النساء قد يأمرن الساحرة بتكرار العبارة المطلوبة بأن تقول:

قل هو الله أحد

يا لنقر

يا عدار البقر

يا النبى نوح

يا قارى اللوح

صبحنا ومسانا سيدنا الخدر

وتقوم والدة النفسا أو إحدى قريباتها كبيرات السن بمعاملة السحارة (الساحرة) بطريقة فظة، على سبيل المثال: قد تحييها وهى جالسة، وتمد لها يداً باردة واستقبالاً فاتراً، وسيغيظ هذا الأمر الساحرة، ويؤدى إلى أن تصبح اللمحات الشريرة القاطعة قليلة وغير فاعلة. وعندما يدخل البيت سحار عليه أن يقول: «ماشاء الله» بصوت مرتفع ويردد :

الله اكبر

يا النقر

عين الحسود فيها عود

وهى الكلمات التى تسمع من بعض النساء، وربما تحيه أم النفسا بشكل فظ أيضا وذلك بهز يده بدلا من تقبيلها - الطريقة المؤدبة لتحية المرأة للرجل - وقد يسبب له كل ذلك لأن ينفعل ويصبح متهما إياهن بسوء السلوك. إن اعتقاده بأنه أحسن أخلاقا من الآخرين بسخطه هذا قد يبدد قوة الشر المتأصلة فى عينيه.

وعند رحيل السحار أو السحارة يتم إحراق لبان وشب فى «مبخر» لطرد روحه أو روحها، كما يتم إحراق آثار أقدام السحار والسحارة مع البخور مع التلفظ بالتعازيم اللازمة.

وإذا مرض الطفل فيما بعد (بعد أسبوع أو أسبوعين) تتهم العين الشريرة بأنها هي السبب، ومن ثم يغطى الطفل بملاءة، ويحرق اللبان والشب في مبخر تحت الملاءة، وسوف يطرد الدخان الذى يستنشقه الطفل العين الشريرة، وترسم علامة الصليب على الجبهة وراحتى اليدين، ويعتقد أن الساحر أو الساحرة قد دخل فى الطفل، وبهذه الطريقة يمكن طردهم من الطفل، ويعتقد أنه عندما يحترق اللبان والشب فى النهاية فإنها تمثل الشخص المشتبه فى أنه هو المسبب فى الضرر السحرى الذى أصاب الطفل، ويتم تلاوة التعويذة التالية بينما يحترق الشب :

يا عين يا عنية
يا كافرة يا نصرانية
دبيتك بيد بية
دبية فاطنة بت النبى
مو دبية عريبية
الما عكر
والفلفل الضكر
فى عين ما فكر
كان انثى وكان ضكر
النبى لخير ناقته
ان قلت علاقته

وسار لحق جماعته
عين الضيف احر من السيف
عين المزاح احر من السلاح
عين الحسود فيها عود
عين العانى سرا وانى
عين الوالد سيف قارض
عين العجوز فيها طابوز
عين العروس تقد التروس
عين الفتاة فيها واطه
عين الراجل فيها مناجل
عين المشرط فيها حشرط
طارت ما ادارت
ووقعت انقعت
والسماء ذات البروج .... إلخ

لقد كانت هذه التعويذة هذه واحدة من التعازيم الشائعة جدا المستخدمة فى كل أنحاء السودان مع تنوعات محلية مختلفة.

وربما يثار تساؤل: لماذا يزور ما يسمون بالسحارات والسحرة منازل النفسا برغم أنه من المؤكد لن تتم مقابلتهم بترحاب؟

لقد افترض فى المقام الأول: أن الرغبة المشتعلة فى تسبيب الأذى والضرر قد تجعلهم يذهبون لرؤية المولود الجديد. وثانيا:

نسبة لأنهم لا يعتبرون علنا كأشرار فإنهم رسميا - إن لم يكن بإخلاص - يتوقع أن يتقيدوا بعادة تهنئة الأم بمناسبة ولادتها، وطلب مشاهدة الطفل، فالأم وزوجها وأقرباؤها سيلومون بشكل زائف الشخص المشتبه في أن له عينا شريرة - إذا لم يقم أو تقوم بزيارة في اليوم الأول - على الرغم من حقيقة أنهم سيكونون مرتاحين إذا لم تتم الزيارة.

وبعد الجيرتق بوقت قصير يتم تغذية الأم بوجبة خاصة مكونة من التمر الجاف المطحون يتم إنضاجه على النار حتى يصبح غليظ القوام ثم يضاف إليه السمن، وهى وجبة لذيذة المذاق، كما يعطى جزء صغير منه فى العادة إلى الطفل. وحتى الكبار يأخذون نصيبهم منه. وقد اختفت هذه الوجبة الآن فى أم درمان ، ولكنها مازالت تقدم فى الأرياف.

ويطلب من الفكى كتابة حجاب صغير للطفل. ويسمى هذا الحجاب «الحفيظة»، وتكتب الحفيظة على ورق أبى شباك، وتطوى على شكل مستطيل ثم تغلف بالجلد، ويعلق فى الرقبة بخيط يتدلى حتى صدر وبطن الطفل، ويكون هناك تذمر مستمر من الأقارب والزوار عندما لا يتم التقيد بهذه العادة، كما أن زوجة الفكى والقريبات هن أكثر الجميع انتقادا لعدم التقيد بالعادة. ومع ذلك فقد يؤخر الوالدان فى بعض الأحيان الحصول على حجاب «الحفيظة» إلى أن يصل الطفل سن الفطام، وقد يعتبر الفكى هذا الأمر احتيالا، ويشير على أنه من

الضرورى تزويد الطفل بحجابين، الحفيظة وحجاب آخر، وبعد نقاش بين الفكى ووالد الطفل يتم التوصل إلى اتفاق بأن يكتب الفكى حجابا كبيرا يطوى داخل غلاف جلدى ذى شكل أسطوانى يلبسه الطفل.

تسمية الطفل «السماية»

وهى شعيرة إسلامية مازالت مرعية، وتتم فى اليوم السابع بعد الولادة، ومع ذلك ففى منطقة كسلا يتم إرجاء السماية حتى اليوم الرابع عشر، وخلال هذه الفترة يتم استشارة الأقارب بخصوص الاسم المستقبلى للوليد، وقد يكون هناك بعض الجدل حول هذا بين أسرتى الوالدين، فالأب يفضل تسمية وليده الأول - إن كان ولدا - باسم والده، أما الأم فتفضل اسم والدها.

وفى النهاية فإن وجهة نظر الأب هى التى تتغلب، ولكن إذا كان عدد أقرباء الأم كبيرا وشخصيتها قوية فإن الاسم الذى اختاره الأب يترك، ويحمل الطفل الاسم الذى اختارته الأم، وإذا كان قريبًا من ذات جنس الطفل قد توفى مؤخرًا، فإن الطفل قد يعطى اسم المتوفى، وإذا ما ولد ولد بعد أن فقد والداه طفلاً قبله فإن الطفل الجديد قد يسمى «عوض»، وإذا ولدت فتاة بعد فقد ولد فإنها تسمى عندئذ «عطية»، وإذا كان الأب قد مات قبل ولادة الطفل فإن اسم الأب قد يعطى للطفل.

ويتم الإعلان عن الاسم علناً في احتفال «السماية» الرسمي، ويذبح خروف سمين، ويتم دعوته كل القرية، كما يتم استدعاء بعض رجال الطرق الصوفية لقضاء جزء من الليل في الذكر والإنشاد الديني والدعاء للمولود. ويكتفي الآن معظم الأفندية بذبح خروف ودعوة عدد صغير من الأصدقاء والمعارف للاحتفال بالسماية. أما الأسماء الشائعة التي يتسمى بها الأطفال فهي تتركز حول الأسماء التقليدية لمحمد والأسماء المشتقة منه مثل حامد ومحمود وأحمد، وأسماء الله مسبوقة بكلمة «عبد» مثل عبد الله وعبد الوهاب.... إلخ، وأيضا أسماء الخلفاء أبو بكر وعمر وعثمان وعلي، أو أسماء أبناء النبي وأحفاده، الحسن والحسين والطاهر والطيب والقاسم....، كذلك أسماء الأبطال المشهورين والأولياء مثل: خالد وأبو زيد والبدوي.

وتتركز الأسماء التي تطلق على الفتيات حول أسرة النبي مثل: خديجة وفاطمة وآمنة ورقية وعائشة...، كذلك الأسماء المألوفة مثل: حواء وبتول ومريم. أما بالنسبة للتوائم فهناك أسماء الحسن والحسين (بالنسبة للأولاد) وأم الحسن وأم الحسين بالنسبة للفتيات، وهم يعتقدون أن الحسن والحسين كانا توأمين.

انتهاء الولادة

كان من المعتاد – وما زال – أن تستمر فترة الولادة أربعين يوما . إن مدة الأسبوعين كافية لبرء الجرح الذى تسبب من جراء الولادة ، ولكن العرف جرى على ألا تخرج الأم من حالة النفاس حتى تنتهى الفترة الأطول ، وإذا كان أحد الجيران قد مات فإن الأم لا تؤدى واجب المواساة إلا بعد انتهاء فترة الولادة . ويسمى اليوم الأربعين بيوم «النفيض» إذ تقوم النفسا وعدد من قريباتها وصديقاتها بإعداد بعض الأطعمة ، ثم يحملنه وكل ملابس الولادة ويذهبن إلى النهر ، وهناك يقمن بغسل الملابس وتغسل الأم وطفلها ، وغناء الأغانى التى تمجد النيل وسكانه غير المرئيين ، وتبدأ معظمها بهذه الطريقة :

يا البحر الجارى

ويا بنات الحور

ويتم أكل الطعام وإلقاء قطع منه إلى النهر مصحوبة بالتوسلات والغناء . إن عادة زيارة النهر هذه فى اليوم الأخير للأربعين مازالت تمارسها حتى الجماعات الأكثر تمدنا ، ويبدو أن هذه العادة قد انحدرت من شعيرة نوبية قديمة ، إذ إننا نعلم أن النوبيين فى السودان القديم مثل : المصريين القدماء مجدوا النيل وقدموا له القرابين ، ومن المحتمل أن هذه العادة قد نشأت فى القديم من التعميد النوبى . وتتم زيارة النهر فى العادة قبل غروب الشمس بوقت قصير ، ربما برودة الجو فى هذا الجزء من

اليوم هى سبب هذا الاختيار. ولكن يبدو من المحتمل أن العلاقة الدينية بين النيل وغروب الشمس هى السبب فى اختيار هذا الوقت. وبعد انتهاء هذه الشعيرة لا تسمى الأم بالنفسا. ويتوقع منها أن تستأنف نشاطاتها المنزلية المعتادة.

هوامش وتعليقات

١ - الجعران أو الجعل : هو خنفساء الروث ولونها أسود وعندما بدأ ظهور الكتابة استخدمت صورته لكتابة كلمة معقدة هي الفعل «خبر khepr» بمعناه «يأتي إلى الوجود وباتخاذ صورة معينة» ثم صار بمعنى «يكون» أو «يصير» ولما كان الجعران وثيق الصلة بفكرة الخلق تلقائيا عن طريق المشابهة الصوتية اعتقد أهل هليوبولس أنه يظهر للرب الخالق الذى أوجد نفسه كما كان المصريون (ويبدو أن النوبيين أيضا) يحملونها كتمائم واقية إذ خبأت هذه الحشرة في نفسها قوة تجديد حياتها باستمرار.

٢ - يبدو أنه الإله بس Bes . وهو إله منزلى مشوه الخلقة غزير الشعر مقطب الأسارير، يلبس باروكة من الريش وجلد أسد، ويخرج لسانه من فمه. وكانت وظيفته حماية الناس من قوى الشر والزواحف والكائنات المؤذية، وكان يصور على تيجان أعمدة الماميزى (أى بيت الولادة) وهو إله يقي النساء في ساعة الولادة من كل ما يسبب لهن الأذى. (انظر معجم الحضارة المصرية القديمة) (انظر شكل ٨).

٣ - شجرة الخلاص: نوع من الصبار ينمو في الحجاز. وكان الحجاج يحضرونه إلى السودان . ويوجد فرع واحد على الأقل من هذه الشجرة في كل قرية عند الجماعات السكانية النهرية .

٤ - تسقف المنازل في السودان - السقف البلدى - بالأخشاب والجريد والمواد الأخرى.ويتم وضع عمود قوى - جزع شجرة ذو فرعين (شعبة) لسند العمود الأفقى حتى لا ينكسر من ثقل السقف.

٥ - تتم الولادة على الفور في منزل أم الحامل إن أمكن حيث تعمل امرأة كبيرة السن

كقابلة . والوضع الاعتيادى لامرأة فى حالة وضع وهو الوقف قبالة حائط الكوخ وفى حالات العزلة يتم تعليق حبل من السقف لكى تساعد الأم نفسها . وأصبح استخدام الحبل شائعا ، إذ تركع المرأة وقدميها مفتوحين على اتساعهما ويولد الطفل في صحن يتم وضعها بين ركبتيها . وتقوم القابلة بقطع الحبل السرى . وتوضع المشيمة فى قدر صغيرة تغطى بالرماد ويتم إلقاؤها فى دغل . وفى هذه الأثناء يكون الزوج قد جمع الحطب لتسخين الماء لحمام الزوجة . وبعد أن تستحم بمساعدة القابلة ، تبقى الأم الصغيرة لمدة سبعة أيام بمفردها ومعها زوجها وطفلها .

٦ - يخالف هذه القول ما كان متبعا عند الرباطاب من أن الأم حتى ولو فى أول ولادة لها بألا تطلق أى صرخة (انظر الحمل والولادة عند الرباطاب) .

٧ - يتم عند الدناقلة إلقاء مشيمة أو خلاص الحيوانات فوق شجرة عالية . وبعد فترة وجيزة تكون كل فروع وأغصان شجرة السنط ذات الأشواك مغطاة بكل الأنواع والأحجام من «خلاص» الأبقار والماعز والنعاج إلخ إذ إنهم لا يلقونها فى العراء خوفا من أن تأكلها الكلاب أو الثعالب .

قائمة إصدارات

مكتبة الدراسات الشعبية

(صدر العدد الأول فى يناير من عام ١٩٩٦)

١ - قصصنا الشعبى .... د. فؤاد حسنين على

٢ - يا ليل يا عين .... يحيى حقى

٣ - سيد درويش .... محمد دواره

٤ - المجذوب .... فاروق خورشيد

٥ - فن الحزن .... كرم الأبنودى

٦ - المقومات الجمالية فى التعبير الشعبى .... د. نبيلة إبراهيم

٧ - إبداعية الأداء فى السيرة الشعبية جـ ١ .... د. محمد حافظ دياب

٨ - إبداعية الأداء فى السيرة الشعبية جـ ٢ .... د. محمد حافظ دياب

٩ - أدبيات الفولكلور فى مولد السيد البدوى .... إبراهيم حلمى

١٠ - موال أدهم الشرقاوى .... د. يسرى العزب

١١ - الرقص الشعبى فى مصر .... سعد الخادم

١٢ - المغازى .... د. صلاح فضل

١٣ - بين التاريخ والفولكلور .... د. قاسم عبده قاسم

١٤ - مملكة الأقطاب والدراويش .... عرفه عبده على

١٥ - فلسفة المثل الشعبى .... محمد ابراهيم أبو سنة

١٦ - الظاهر بيبرس .... د. عبد الحميد يونس

١٧ – الحكاية الشعبية .... د. عبد الحميد يونس

١٨ – خيال الظل .... د. عبد الحميد يونس

١٩ – الأزياء الشعبية والفنون في النوبة .... سعد الخادم

٢٠ – الفن الإلهي .... محمد فهمي عبد اللطيف

٢١ – النيل في الأدب الشعبي .... د. نعمات أحمد فؤاد

٢٢ – الفولكلور في العهد القديم جـ١ .... تأليف : جيمس فريزر

ترجمة : د. نبيلة ابراهيم

٢٣ – الفولكلور في العهد القديم جـ٢ .... تأليف : جيمس فريزر

ترجمة : د. نبيلة ابراهيم

٢٤ – الفولكلور في العهد القديم جـ٣ .... تأليف : جيمس فريزر

ترجمة : د. نبيلة ابراهيم

٢٥ – حكاية اليهود .... تأليف : زكريا الحجاوي

٢٦ – عجائب الهند .... تقديم يوسف الشاروني

٢٧ – حكاية اليهود ط ٢ .... زكريا الحجاوي

٢٨ – الحُلي .... د. عبد الرحمن زكي

٢٩ – أبو زيد الهلالي .... محمد فهمي عبد اللطيف

٣٠ – السيد البدوي ودولة الدراويش........... محمد فهمي عبد اللطيف

٣١ – التاريخ والسير .... د. حسين فوزي النجار

٣٢ – خيال الظل .... د. ابراهيم حمادة

٣٣ – فرق الرقص الشعبي في مصر .... عبير السيد

٣٤ – مباحث في الفولكلور .... محمد لطفي جمعة

٣٥ – نجيب الريحاني .... عثمان العنتبلي

٣٦ - عالم الحكايات الشعبية .... فوزي العنتيل

٣٧ - الزخارف الشعبية على مقابر الهو .... محمود السطوحي

٣٨ - الفولكلور ما هو ؟ .... فوزي العنتيل

٣٩ - سيرة الملك سيف بن ذي يزن .... المجلد الأول

٤٠ - سيرة الملك سيف بن ذي يزن .... المجلد الثاني

٤١ - سيرة الملك سيف بن ذي يزن .... المجلد الثالث

٤٢ - سيرة الملك سيف بن ذي يزن .... المجلد الرابع

٤٣ - سيم العشق والعشاق .... أحمد حسين الطماوي

٤٤ - كتابات في الفن الشعبي......................... حسن سليمان

٤٥ - المأثورات الشفاهية .... تأليف : يان فانسينا

ترجمة : د. أحمد مرسي

٤٦ - بين الفولكلور والثقافة الشعبية .... فوزي العنتيل

٤٧ - الشعر البدوي في مصر - ج١ .... د. صلاح الراوي

٤٨ - الشعر البدوي في مصر - ج٢ .... د. صلاح الراوي

٤٩ - الطفل في التراث الشعبي. .... د. لطفي حسين سليم

٥٠ - تغريبة الخفاجي عامر العراقي..................... باسم حمّودي

٥١ - الفولكلور.. قضاياه وتاريخه...... تأليف : يوري سوكولوف

ترجمة : حلمي شعراوي - عبد الحميد حواس

٥٢ - الأسطورة والإسرائيليات .... د. لطفي سليم

٥٣ - البطل في الوجدان الشعبي .... محمد جبريل

٥٤ - الاحتفالات الدينية في الواحات .... د. شوقي حبيب

٥٥ - الاحتفالات الأسرية في الواحات .... د. شوقي حبيب

٥٦- من أغـانى الحيـاة فى الجبل الأخـضـر .... د. هانى السيسى
٥٧- النبـوءة أو قدر البطل فى السيرة الشعبية العربية... د. أحمد شمس الدين الحجاجي
٥٨- من أساطير الخلق والزمن .... صفوت كمال
٥٩- بطولة عنترة بين سيرته وشعره.......... د. محمد أبو الفتوح العفيفى
٦٠- جحا العربى وانتشاره فى العالم.......... كاظم سعد الدين
٦١- الزير سالم فى التاريخ والأدب العربى.......... د. لطفى حسين سليم
٦٢- على الزيبق.......... فاروق خورشيد
٦٣- ملاعيب على الزيبق .... فاروق خورشيد
٦٤- الشعر الشعبى العربى .... د. حسين نصار
٦٥- لعب عيال .... درويش الأسيوطى
٦٦- الأسطورة فجر الإبداع.......... د. كارم محمود
٦٧- الزجل في الأندلس .... د. عبد العزيز الأهوانى
٦٨- الأغنية الفولكلورية للمرأة المصرية عند الجعافرة .... محمود فضل
٦٩- أهازيج المهد.......... درويش الأسيوطى
٧٠- الثورات الشعبية في مصر الإسلامية.......... د. حسين نصار
٧١- الواقع والأسطورة .... د. أحمد أبو زيد
٧٢- أصل الحياة والموت .... ترجمة : محمد آدم
٧٣- الفولكلور في كتاب حياة الحيوان للدميرى جـ١ ...... د. صلاح الراوى
٧٤- الفولكلور فى كتاب حياة الحيوان للدميرى جـ٢ ...... د. صلاح الراوى
٧٥- ألعاب الأطفال وأغانيها فى مصر .... محمد عمران
٧٦- فولكلور الحج .... محمد رجب النجار
٧٧- آثار البلاد وأخبار العباد جـ١ .... زكريا بن محمد بن محمود القزوينى